

روايات مصرية للجيب
63
ما وراء الطبيعة
أسطورة
المحركين
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

تيليكينيزيس : من اليونانية (تلى + كينزس = حركة) . الحركة الظاهرية للأجسام (بوساطة وسيط روحانى مثلاً) من دون تلامس أو أية وسيلة مادية أخرى .

قاموس وبستر الشامل - الطبعة السابعة

المقدمة

اعتدت أن أتكلم كثيرًا فى المقدمة ، وواظبت على هذا طيلة حكاياتى السابقة ..

واظبت كذلك على التغيير .. لأنك لن تجد من هو أكثر منى مللاً مهما حاولت ..

لماذا لا نخرق هذه القاعدة التى صارت مملة ، ونبدأ على الفور بلا أية مقدمات ؟

هه ؟ فلنبدأ الآن ..

* * *

تمهيد

نعم عرفت الكثير عن التحريك عن بعد Telekinesis .. لقد تحدثت عن أشياء كثيرة ، لكنى لم أتحدث عن القدرات النفسية الخارقة كثيرًا ، ربما لأننى أنفر بطبعى من الكتب التى تملأ الأرصفة عند باعة الصحف عن (حوادث غريبة) و(القدرات العجيبة للإنسان) .. إلخ .. حيث كلام لا ينتهى عن (نوستراداموس Nostradamus) والسيدة (مارجريت) التى شعرت بأنها تختنق بينما ابنها يغرق فى الناحية الأخرى من العالم ، وشبح الكونتيسة الذى يعبر الردهة كلما اكتمل القمر بدرًا .. هذه كتب مليئة بالأسئلة ولا تقدم أجوبة ، ولا تظفر منها إلا بأن تغلق الكتاب وتقول : هناك أشياء غريبة فعلاً فى هذا العالم .. يا سلاااااام !

من الغريب أن أقول أنا بالذات هذا الكلام ، لكنى التزمت معكم بأن أحكى قصصًا ولا أحكى ظواهر ، وألا أحكى إلا ما رأيته بعينى وتفاعلت معه .. ولنفس السبب لم أتحدث عن الجان

قط - ولن أتحدث - لأن خبرتى معهم ضئيلة ، ولأنى أخشى أن أتورط فى خطأ دينى دون أن أعرف ، فهم مذكورون بوضوح فى القرآن الكريم ..

نعم عرفت الكثير عن التحريك عن بعد.. رأيت تجارب له أمام عينى ، وقابلت أشخاصًا مارسوه وما زالوا .. وقد تعلمت أن هؤلاء الأشخاص لا يعلنون عن أنفسهم أبدًا حتى لا يخافهم الآخرون .. إنهم يفضلون إخفاء موهبة هائلة كهذه مقابل أن يندمجوا فى عالم البشر ولا يتم اعتبارهم فلتات Freaks .. أما الذين يتفاخرون فى كل صوب بموهبتهم ويعرضونها على المسارح وفى الملاهى الليلية هم على الأرجح مجرد حواة .. عرفت كذلك أن البعض لديهم هذه الموهبة لكنهم لا يعرفون .. يقال إنها موجودة لدينا جميعًا لكن الحضارة غطتها بطلائها الأنيق .. لست ميالاً إلى هذه النظرية على كل حال ؛ لأن معناها أن البدائيين هم مجموعة من محركى الأشياء عن بعد ، ومشاهداتنا والتاريخ ذاته ينفى ذلك ..

إن لفظة Telekinesis لا تعنى بالضبط اللفظة الأشمل (التحريك النفسى Psychokinesis) بل هى جزء منها ؛ لأن دراسات التحريك النفسى تشمل التحريك عن بعد ورفع الأجسام فى الهواء والتواجد فى مكانين ، والعلاج الروحانى والتجسد..

إن التحريك عن بعد معجزة صغيرة ، ولو امتلكناها لامتلكنا قوة لا تصدق .. أعتقد أن المحرك القوى سلاح سرى خطر ، ولأسباب كهذه غاصت الحكومة السوفييتية حتى الأذنين فى هذه البحوث أيام الحرب الباردة ..

لا أحد يعرف إلام وصلوا بالضبط .. السوفييت لديهم عادة التكتم للتكتم .. حتى إن هذه صارت هواية فى حد ذاتها .. ولم يتسرب للغرب عام 1968 إلا فيلم قصير .. فى هذا الفيلم تظهر ربة بيت تدعى (نينا كولاجينا) من (لننجراد) تحرك أجسامًا صغيرة بمجرد التركيز .. تقطب ويبدو عليها التركيز الشديد.. تتقلص يداها فى مزيج غريب من المعاناة والألم والنشوة ؛ فيتحرك الكوب على حافة المنضدة ..

حسن .. لقد حاول الأمريكيون كثيرًا جدًا العثور على آثار خيوط فى هذه الصور ، لكنهم فشلوا .. فكروا فى التحريك بإيقاف الكادر Stop motion animation فهم لم ينسوا الفيلم الفرنسى (بيت الأشباح) الذى رأوه فى بدايات القرن ، حيث كانت الأشياء تتحرك ذاتيًا ، وأجهدوا أنفسهم بحثًا عن خيوط بلا جدوى .. اتضح فيما بعد أن الفرنسيين ابتكروا حيلة بسيطة هى تحريك الجسم حركة ملليمترية ثم التقاط الصورة .. تحريكه أكثر ثم التقاط صورة .. هكذا حينما يعرض الفيلم بسرعة عادية يبدو الجسم كأنما الحياة قد دبت فيه .. إنه الظهور الأول لأسلوب التحريك بإيقاف الكادر ..

على كل حال تأكد الخبراء من أن الفيلم أصلى ، وبرز سؤال واحد : ماذا عرفه السوفييت أكثر من هذا ؟

الشىء الوحيد الذى اتفق عليه الجميع أن من يعرف ويفعل أكثر من هذا لن يعلنه ..

وفيما بعد درس العلماء ظاهرة البولترجايست Poltergeist أو الأشباح الصاخبة ، وقد رأى اكثرهم أنها ظاهرة تحريك

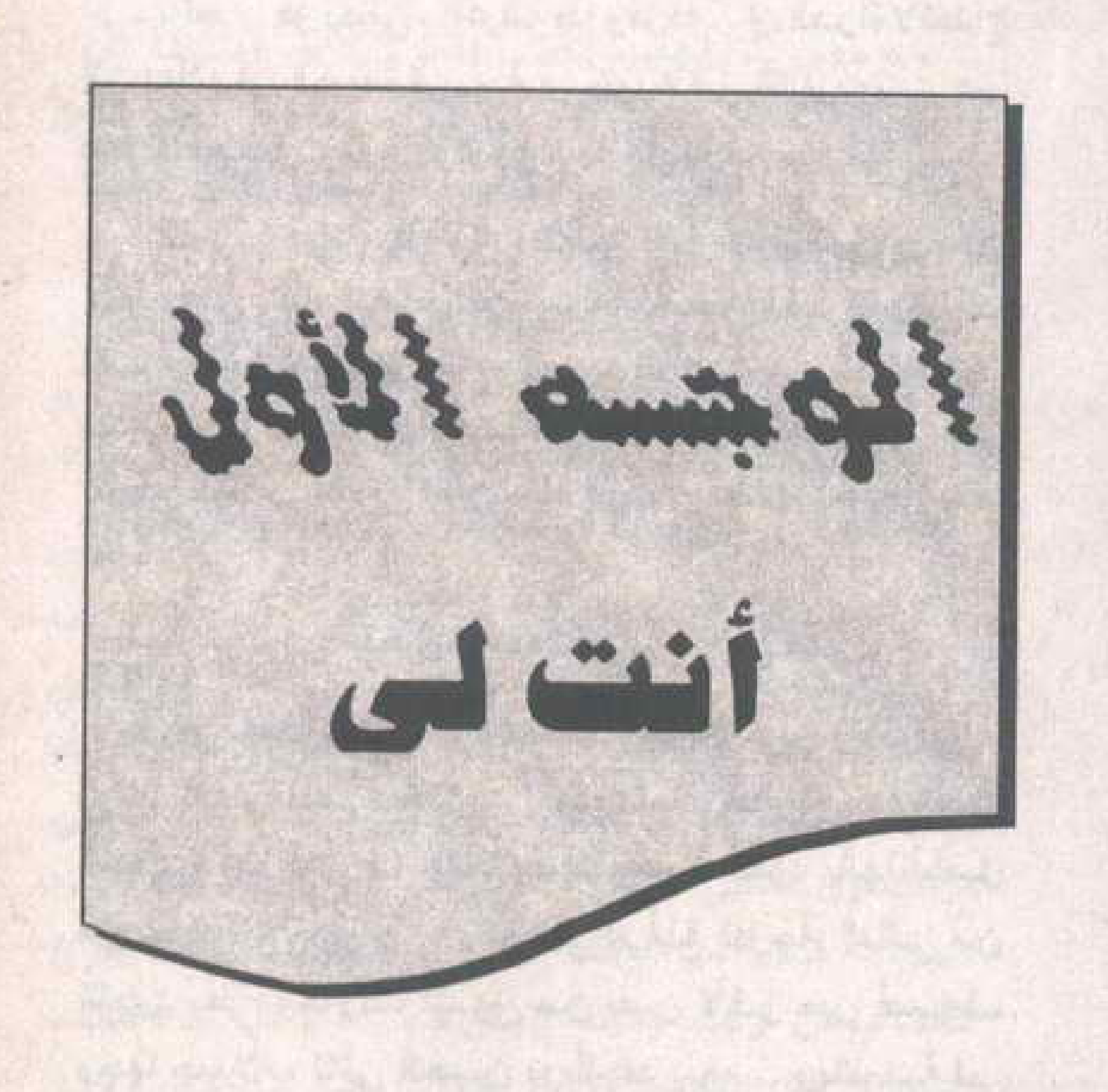
عن بعد لا إرادية .. أى أن هناك من يملك موهبة التحريك عن بعد لكنه لا يعرف هذا .. وهو يراقب فى ذعر الأشياء التى تتحرك والمقاعد التى تطير ، والأطباق التى تعلو فى الهواء لتتهشم على الأرض ، ولا يعرف أنه من يفعل هذا !

حسن .. لن أطيل عليكم ..

ما سأفعله هو أن أخرس ـ وإنه لشىء مغر ـ وأقدم لكم مجموعة من القصص التى تعاملت فيها مع ـ أو عرفت قصصًا عن ـ التحريك عن بعد..

وسوف أترك لكم التعليق بعد هذا ..

★ ★ ★



1

ـ « نعم .. هو يحبنى .. أعرف هذا وأدركه .. إن المرأة لاتحتاج إلى إعلان فى الجريدة الرسمية أو تنويه فى التليفزيون .. هى فقط تسمع صوت الرجل وترى عينيه فتدرك أنه يهيم بها .. »

قالت د. (هيام) هذا وهى تلمس إطار عويناتها من حين لآخر ، على سبيل التخلص من توترها واضطرابها .. خجول جداً لكنها واثقة من نفسها حقًا .. لا يوجد تناقض بين الصفتين .. منذ زمن عرف علماء الاجتماع أن الشخص الخجول هو على الأرجح شخص عظيم التقدير لذاته إلى حد إعطائها أهمية مبالغًا فيها ..

استرخيت فى مقعدى وأطبقت ذراعى على صدرى ..

هل هى جميلة ؟ لا أعرف .. ليست لى عين الآخرين ولا ذوقهم .. ثم إننى أعتبر نفسى منذ زمن بعيد عالمًا يرمق الوجود تحت المجهر .. لم أعرف عالمًا يصف عصية تيفود بأنها أجمل من العصية الأخرى .. أعترف أننى لم أبلغ الدرجة المثلى من التجرد بعد ، وما زلت أشهق من حين لآخر حين أصادف وجهًا جميلاً .. لكنى أتحسن يومًا بعد يوم .. وبالنسبة لى كانت د. (هيام) عصية تيفود أخرى ، لكنها على الأقل عصية تمتاز برقة وملائكية لا شك فيهما ..

قالت لها :

ـ « حسن .. (إيهاب) يحبك .. أنت لا .. ما المشكلة إذن ؟ فليذهب الشيطان التعس إلى الجحيم .. أعتقد أن هذه أسعد لحظة فى حياة أية فتاة حين تخبر ذلك البائس الذى يحبها : أنت إنسان ممتاز وأنا اعتبرك أخًا .. فى ظروف أخرى كان هذا الكلام يشرفنى .. ستجد من هى أفضل منى .. إلخ .. إلى آخر هذا الكلام المحفوظ الذى يبدو أنكن تتعلمنه فى الرحم .. ثم تتظاهر بأنه يضايقها بينما هو قد منحها أسعد لحظة فخر فى حياتها .. إذن ما المشكلة وما دورى هنا ؟ »

كنا جالسين فى مكتبى ، نشرب القهوة .. من الطريف أن (هيام) تحب القهوة مثلى بالضبط .. وكانت قد طلبت لقائى بصدد تلك المشكلة التى بدأت خيوطها تتضح لى فى الأيام السابقة والتالية .. احتاجت (هيام) إلى دقائق حتى تشفى من مفعول كلماتى الصادمة .. لم تعتد أن يكلمها أحد بهذه الصراحة الدانية من الوقاحة ، ثم إننى ـ بالنسبة لها ـ أنزع الغطاء عن أوهام جميلة فتبدو مجردة قبيحة .. لا طعم للحياة إن فقدت قناعها الأنيق هذا .. على كل حال أعتقد أنهم أخبروها عنى .. لسان سليط وملل يمشى على قدمين .. لم يخدعوها ولم أخدعها ..

قالت أخيرًا وقد تلوثت شفتاها بالبن الأسود الثقيل :

- « ربما لو حكيت لك القصة من بدايتها تتضح الأمور أكثر .. »

* * *

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير فى مستشفانا ، لكن عملها بدأ يتركز على العناية المركزة أكثر فأكثر ..

رقيقة هى .. جميلة كما يصفونها .. مهتمة بعملها حقًا .. فى الثامنة والعشرين هى .. غير مرتبطة وبلاقيود ذهبية حول خنصر أيمن أو أيسر .. هذا يجعلها فرصة سانحة لمن يرغب فى الارتباط ..

هكذا تعددت العروض .. لكنها لم تبال بها ، ربما لأنها لم تكن راغبة فى الزواج على الأقل فى هذه المرحلة .. لقد شغفت حبًا بالعناية المركزة حتى لم يعد فى قلبها موضع لشىء آخر .. كانت كأرض جافة ترتوى لأول مرة بالماء .. هكذا كانت تتعلم السيطرة على الكهارل Electrolytes والسباق الزمنى المحموم ضد قرحة الفراش ، والألغاز التى تتحكم فى ضغط الدم ومقاومة عدوى التنفس .. كانت تتعلم الكثير كل يوم ، لهذا - كلما ظهر أحدهم مسبلاً عينيه فى هيام -

كانت تشعر بأنه يعطلها .. لم تكن تحمل ضده ضغينة ما ، لكن العيون المسبلة والوعود بالسعادة هى آخر أشياء تهمها الآن .. لقد بدا العالم الخارجى بمشاكله ومسراته وأحزانه شيئًا بعيدًا جدًا ومبتذلاً .. هناك فى الخارج حافلات وباعة وموظفون ومطلقات ولصوص وعرسان وبرامج تليفزيون وأغان جديدة .. لكنه - كل هذا - بعيد جدًا عنها ..

لقد أدمنت صوت جهاز التنفس الصناعى وسط السكون .. أدمنت رائحة الدواء .. ورائحة بودرة (التلك) المخلوطة بالعطر الرخيص الذى يدلكون به ظهور حالات الغيبوبة .. أدمنت صوت المرقاب الذى يسجل ضربات القلب .. الإضاءة الخضراء حين تظلم الغرفة تمامًا .. عملية نزع حذاءيها على باب العناية وارتداء الحذاء المطاطى أو الخف الأزرق إياه ، كانت تشعرها بالفعل بأنها تدخل محرابًا مقدسًا .. هذا مكان غير ملوث ولا يحق له أن يتلوث بقبح العالم الخارجى .. إنه قدس الأقداس .. وهى الكاهنة العذراء التى تعرف كل أسرار المكان ..

كانت - بحكم خجلها - لا تجيد التعامل مع المرضى فى الخارج .. أما هنا فقد كان المريض يأتيها فى أمس حاجة إلى العناية .. غير قادر على إزعاجها لكنه يحتاج إليها

بعنف .. وعندما يأتى المساء وتخلد الممرضات للنوم فى مقاعدهن ، كانت تجلس إلى المنضدة فى ركن القاعة حيث الإضاءة الخافتة الوحيدة ، وتطالع بعض المراجع الطبية ، أو أشعار (ناجى) الرقيقة .. (ناجى) كان طبيبًا مثلها .. ومثلها فهم أن الطب والشعر شىء واحد ..

هناك كانت (هيام) تنتمى وتوجد .. إنها هنا الملكة .. حينما لا يكون هناك من هو أكبر خبرة منها فالكل يسألها ويطلب رأيها .. وقد عقدت علاقة خاصة مع كل مريض .. بعضهم واع لكن حالته الصحية لا تسمح له بالنهوض ، وبعضهم فى غيبوبة تشعرها بالرهبة .. إنه غائب فى عالم آخر لا تعرف مقاييسه ولا ما يحدث فيه . فقط تقف تراقب وجهه الساكن شاعرة بأنه اجتاز البوابة .. إنه يعرف ما لا نعرف وقد ازداد حكمة بما لا يقاس ..

حياة د. (هيام) رتيبة خارج المستشفى ، فأسرتها لم تعرف بالثراء .. أب وأم فى أرذل العمر ، وأخ فى نهاية مراهقته .. لا توجد تفاصيل أخرى ..

لهذا لا نعلن سرًا إذا قلنا إنها تتعمد البقاء فى المستشفى أكثر من اللازم ، وإنها تبحث لنفسها عن النوبتجيات بحثًا .. طبعًا هذا يسر زملاءها كثيرًا .. إنها متطوعة فى أى وقت

لأخذ أية نوبتجية يريد أى واحد التخلص منها .. ولولا المسئولية القانونية لفعلت هذا سرًا من دون أن يدون اسمها على الأوراق .. هى لا تريد المال ولا تعبأ به .. كل ما تريده هو أن تتواجد هنا والآن ..

أحبتها الممرضات وقد عرفن أنهن - ربما للمرة الأولى - قابلن طبيبًا مخلصًا حقًا .. وأحبها المرضى المحتفظون بوعيهم ، وقد رأوها تصلح وضع المريض بنفسها أو تجلس خلفه لتسنده إلى صدرها ريثما تبدل الممرضة الملاءة المتسخة .. رأوها تفرغ كيس البول بنفسها دون تأفف لمجرد أنه لا يوجد قربها من يفعل هذا العمل .

كان الجميع يتمنى أن يجد فى هذا كله شبهة ادعاء ، لكنهم فشلوا .. وقد ترك هذا فى نفوسهم إحساسًا بالإحباط يختلط بتقدير لا متناه لهذا الملاك صغير الحجم ..

كان هذا حين عرفت شخصًا نادرًا من الطراز الذى يمكن أن يغير حياة المرء بالكامل .. هذا الشخص النادر كان نحيلاً كدودة الأرض .. أصلع الرأس كأنها كرة عراف زجاجية ملساء .. كان هذا الشخص يدعى (رفعت إسماعيل) ..

كلا .. لم تعرفه لتقع فى هواه لا سمح الله ، ولكنها

عرفته زميلاً فى العمل .. وقد عرفت منه بعض أشياء مهمة .. وعرفت اهتمامه غير الطبيعى ، أو انغماسه المبالغ فى عوالم ما وراء الطبيعة ..

سألته ذات يوم عن مرضى الغيبوبة .. هل يعتقد أنهم يعيشون حلمًا طويلاً ؟

قال فى حيرة :

ـ « لا أدرى .. »

ـ « ومن الذى يدرى ؟ »

ـ « بين البشر .. لا أدرى .. »

ثم حك رأسه الأصلع مفكرًا ، وقال :

ـ « الأمر لغز كبير .. لكن هناك فرعًا كاملاً من العلوم الماورائية يدعى (تجربة الدنو من الموت NDE) ، والذين عادوا منه يحكون قصصًا متشابهة إلى حد كبير .. ثمة ما يدعو للاعتقاد بأن مرضى الغيبوبة العميقة أو موت الدماغ يمرون بحالة طويلة من NDE »

كانوا يطلبون رأيه أحيانًا فى بعض الحالات ، وقد لاحظت أنه لا يملك عجلة الأطباء ولهفتهم على الانتهاء .. كان يتصرف كأنه

يملك كل الوقت فى العالم . يفرغ مما طلب منه يجلس متثاقلاً إلى ذلك المقعد فى ركن المكان ، ويفكر لبضعة قرون .. ثم يقول كلمة .. ثم يتأمل بضعة قرون ويقول كلمة أخرى .. ثم ينهض متثاقلاً ..

وقد سألته ذات مرة عن سبب هذا الهدوء فقال :

ـ « لا أعرف .. كل الناس مشغولون ما عداى .. أعتقد أنى الشخص الوحيد غير المهم فى هذا العالم .. تأملى سلوك الناس عند إشارات المرور .. تأملى كيف يقود الشباب سياراتهم كأنهم ذاهبون لتحرير القدس ، ثم يتضح أنهم يريدون الإسراع إلى المقهى لتدخين (الشيشة) .. »

كانت ترتاح إليه لكنها تهابه .. وتحترمه لكنها لا تحبه ..

لكنها لم تعرف إلى أى حد سوف تحتاج إلى الاقتراب منه ، بعد قصتها مع (إيهاب) ..

أنتم تعرفون القصة كلها لهذا لن نتطرق إليها وسنبدأ على الفور بحكاية السيارة .. ماذا ؟ لا تعرفون الكثير عن (إيهاب) .. لا تعرفون أى شىء عن (إيهاب) ؟ إذن أنتم متأخرون جدًا .. لو أمسكت قطًا فى المستشفى وضغطت على ذيله قليلاً لحكى لك قصة (إيهاب) ..

تعالوا إذن نحك القصة بسرعة ..

2

الظلام .. الطريق السريع .. الأمطار .. الأرض الزلقة ..

أضواء مبهرة فى الاتجاه العكسى .. أنت لا تصدق عينيك لكنها الحقيقة .. هذا ما يحدث لك بالذات ..

إن ما تراه الآن وأنت تمسك بالمقود فى هلع ، والضوء قد أحال الزجاج الأمامى إلى بقعة من العذاب المقيم .. ما تراه هو أن شاحنة مندفعة فقدت التحكم .. عبرت حاجز الطريق المعاكس وتتجه نحوك الآن بسرعة ضاعفتها سرعتك !

هناك سيارات على يمينك .. خلفك .. لا تعرف إلى أين تقصد..

لو ضغط على الفرملة لتحولت إلى شهاب محلق فى السماء ..

كل هذا تراه وتستوعبه فى عُشر ثانية ..

إن الرعب لا يخرج من القبور المفتوحة فى كل الأحوال .. لا يمد يدًا مخلبية من وراء الباب .. هناك رعب حقيقى وهذا أسوأ ما فيه .. وأشنع الكوابيس طرًا هو ما تعرف أن المنبه لن يوقظك منه ..

فى اللحظة الأخيرة يتخذ عقلك الأمر .. هى الفرملة ولا يوجد حل آخر .. فليرحمنا الله .. يصدر الأمر لخلايا الحبل الشوكى فتتوقف مترددة وقد فغرت فاها .. مستحيل .. لا بد أنه جن .. لكنها تصدع بالأمر .. الإشارة العصبية تنتقل إلى العصب .. العصب ينقلها إلى العضلات .. تنظر العضلات لبعضها .. إنها تعرف أنها النهاية لكن ليس أمامها إلا الطاعة ..

تتحرك العضلات لتدعس الفرملة ، وفى اللحظة التالية يتم السيناريو كما توقعه الجميع ..

السيارة تدور حول نفسها على الطريق الزلق .. تصدم سيارتين من السيارات القادمة من الخلف .. تسير على سقفها مسافة لا بأس بها .. ثم تنقلب مرة أخيرة لتهوى فى الترعة على جانب الطريق ..

الباب مغلق .. ما زلت قادرًا على أن تمد يدك وتحاول فتحه .. لكن ..

ضغط الماء بالخارج يجعل أطنانًا تضغط على الباب .. لا يمكن تحريكه .. هنا يخطر لك أن تفتح الزجاج ..

تدير المقبض .. بينما بدأ الوعى يتسرب .. يتسرب ..

هل هى المرة الأخيرة ؟

ظلام ..

ظلام ..

ظلام ..

★ ★ ★

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير فى مستشفانا ، لهذا كانت أول من استقبل المريض ..

كانت الحالة سيئة .. ارتجاج ونقص الأكسجين لفترة طويلة إلى أن وصل الفلاحون وتعاونوا على إخراجه من تحت الماء .. كسور فى أكثر من موضع .. إلخ ..

اسمه (هشام عونى) .. تقول البطاقة الشخصية إنه مهندس زراعى .. وتقول إنه من الإسكندرية وإنه غير متزوج .. وتقول إنه فى أول العقد الرابع من العمر ..

وكان رأى الأطباء الأكثر خبرة واضحًا .. هذا موت دماغى لا شك فيه .. سنبقى تنفسه منتظمًا ونحاول ألا تقتله العدوى أو قروح الفراش ، فيما عدا هذا نحن نعرف يقينًا أنه سيموت .. اليوم أو بعد أسبوع أو بعد شهر .. لا أحد

يعرف .. كل طبيب لديه قصة عن مريض توقعوا موته بعد أسبوع ، لكن طبيبه المعالج مات قبله بنوبة قلبية على حين شفى المريض .. معجزات ؟ إنها لا تحدث كثيرًا .. لكن كل طبيب يعرف قصة أو أكثر عن معجزة صغيرة حدثت فى زمننا الذى انتهت فيه المعجزات .. مأساة ؟ كل طبيب يعرف مآسى تتمزق لها القلوب .. لن يكون هذا آخر شاب واعد يفقد حياته بسبب سائق شاحنة اعتقد أن (الأفيون) يفيده فى البقاء ساهرًا فى أثناء القيادة ..

هكذا مارست د. (هيام) عملها بدقة وبخطوات منهجية : قامت بأخذ فصيلة الدم .. تأكدت من انتظام جهاز التنفس .. أخذت القياسات الحيوية . بدأت فى إعطاء العلاج .. ثم راحت تبكى قليلاً .. باختصار الروتين المعتاد الذى تعرفه الممرضات ..

سرعان ما يذوب (هشام) ليصير إحدى حالات الغيبوبة العديدة هنا .. لن يعود له اسم سوى (مصاب السيارة التى انقلبت) أو (السرير رقم 5) ..

خرجت (هيام) من العناية المركزة إلى البهو الخارجى .. ارتدت حذاءها ثم مشت فى الممر .. هناك غرفة كتب عليها

(الطبيب) ، وهناك مقاعد متراصة للزوار .. ليست غرفة الطبيب غرفتها لأن مكانها هنالك داخل العناية المركزة .. لكنها كانت فى حاجة إلى أن تجلس بعيدًا عن محرابها بعض الوقت .. سوف تجلس قليلاً شاردة ، ثم تعود إلى الداخل .. هكذا تفعل دائمًا كلما جاءت حالة جديدة ..

جلست فى الغرفة وألقت نظرة إلى الخارج ..

هناك على مقاعد الاستراحة كان ذلك الشاب الوسيم .. كان دامع العينين يعتصر منديلاً كبير الحجم ، وينظر إلى السقف .. حيث تتراص مصابيح النيون الكلبية فى خط مستقيم ممل .. كم راحت تنظر لهذه المصابيح من قبل .. تعرف أن الثالث يحدث أزيزًا يصم الآذان والرابع لا يضىء إلا فيما ندر ، والسابع تعيش فيه أسرة من العناكب ..

نظر الشاب إليها لحظة ثم أدار وجهه .. يخفى دموعه على الأرجح ..

ثم نهض ..

يدنو منها .. فارع الطول يلبس معطفًا طويلاً ضد الأمطار .. هذا يجعله مهيبًا غريبًا .. تذكرت الرماة المحترفين فى أفلام رعاة البقر التى كانت تراها فى السينما مع أبيها .. المعطف مفتوح والمسدسان مكشوفان .. مستعد فى أية لحظة للإطلاق ..

حياها بلطف برغم الحزن فى صوته ، ثم قدم نفسه :

ـ « (إيهاب عونى) .. رسام . »

لم تكن قد قابلت من قبل من يعمل بالرسم .. قابلت من يهواه لكن أن تكون هذه مهنة كالمهندس والمحامى .. هذا غريب ..

ثم بإشارة ذات معنى أومأ إلى العناية المركزة ، وقال :

ـ « أنت طبيبته .. أليس كذلك ؟ »

ـ « من هو ؟ »

ـ « (هشام) .. إنه أخى .. »

لم تربط بين الاسمين إلا بعد ثوان .. بالنسبة لها لم يعد (هشام) إلا (مصاب السيارة التى انقلبت) .. لذا قالت فى حرج :

ـ « معذرة .. لم أعرف .. »

ـ « إنه أخى .. ليس لدى أمنا سوى ولدين .. أعتقد أنها فقدت الآخر »

ـ « لا تقل هذا .. إنه حى يرزق .. »

كانت هذه أصعب لحظة فى مهنتها حين تشرح لأهل المريض لماذا لا يفيق مريضهم .. لماذا لا ينهض ويغادر

الفراش الآن ؟ تشرح لهم معنى الوفاة الدماغية ، ومعنى أن يظل المريض معلقا بين الحيـاة والموت .. معنى الثبات .. ومعنى أن يتمنى أهله له الموت ..

لكنها شرحت له كل هـذا وقـد أصغى لهـا بانتباه .. وفى النهاية قال لها :

ـ « إذن هو بخير ! »

كانت قد اعتادت هذا الغباء وضمته إلى حقائق الحيـاة .. هو لن يسمع منها إلا مايريد سماعه ..

فى النهاية شكرها وعاد إلى المقعد وراح يرمـق أضواء النيون من جديد..

وكان هذا هو اللقاء الأول .. لو كنا فى فيلم عربى قديم من إخراج (هنرى بركات) لسمعنا موسيقا حالمـة ،تنذر المشـاهد بأن الحب ولد فى هذه اللحظة ، لكن (هيام) لم تسمع شيئاً .. كانت تسمع فقط صوت جهاز التنفس المنتظم ..
أما هو فسمع الموسيقا ..

وعرف على الفور أن عليه أن يحب هذه الطبيبة الساحرة ..

الحقيقة أنه ـ كما سنعرف حالاً ـ سيفعل ذلك بشدة ..

★ ★ ★

3

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير فى مستشفانا ، لهذا كانت موجودة فى أغلب الأوقات .

تكررت اللقاءات وبدأ نوع من الألفـة يولـد.. قدرت فى البداية أنه مهتم بها بسبب اهتمامه بأخيه الغائب عن عالمنا بالداخل .. لكنها بدأت ترتاب ..

قالت لى (هيام) وهى تجفف شفتيها من أثر البن :

ـ « كـان يتكلم عن وجهى الجدير بالرسم .. بل إنـه راح يخط ملامحى فى مفكرة معه .. »

قلت لها وأنا أتثاءب :

ـ « لا أعرف مـا هـى المشكلة .. يسـهل علـى الفتاة أن تتخلص من رجل يلاحقها ، فماذا عنك وأنـت مكلفـة بالبقاء داخل حرم العناية المركزة ؟ كيف كان يقابلك ؟ »

ـ « يسهل على الرجل كذلك أن يتحول إلى ذبابة لا يمكن التخلص منها .. لا يمكن أن أخرج إلى البهو فى أيـة لحظة دون أن أراه .. عندها كان يلاحقنى .. يسـأل عن أخيـه ثـم يجلس معى فى أى مكان أجلس فيه .. »

ـ « ما زال التخلص منه سهلاً .. »

- « لا أظن .. لا تنس أننى لم أعتد أن أكون حادة .. لم أزجر إنسانًا قط فى حياتى ولا أجيد فن الخشونة .. »

كنت أعرف أن هناك عاملاً آخر لا تعترف به .. أن الأمر يروق لها .. ربما هى لا تعرف هذا لكنها – من دون أن تعلم – مسرورة بملاحقته لها .. هى لا تعرف ماذا تريد حقًا .. ربما تميل إليه لكنها لا ترضى بالارتباط به ..

- « وفيم كان يتكلم ؟ »

- « عن كل شىء .. عن حاجته إلى التحرر من قيود المادة .. عن تطلعه لعالم آخر بلا حدود .. »

سألتها :

- « منذ متى عرفت أنه يملك موهبة التحريك عن بعد ؟ »

بدأت عروض الرجل الصامتة تفصح عن نفسها أكثر ..

حتى جاء اليوم الذى جلست فيه إلى المنضدة .. وكان جالسًا أمامها حين تدحرج القلم بعيدًا عن موضعه فوق المنضدة .. كان فى متناول يدها ثم لم يعد .. مدت يدها بلا مبالاة والتقطته ..

فى هذه اللحظة تدحرج القلم إلى موضع آخر ..

كان هذا لا يصدق .. كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة فى خط مستقيم بسرعة منتظمة ما لم تؤثر فيه قوة تغير من حالته .. و(نيوتن Newton) لم يكن أحمق بالتأكيد ..

- « بسم الله الرحمن الرحيم ! »

ومدت يدها من جديد إلى القلم فقط ليثب إلى موضع آخر ..

هنا وثبت خائفة .. وحانت منها نظرة إلى (إيهاب) فوجدت أنه ينظر إلى القلم فى ثبات .. رآها فارتسمت ضحكة على وجهه .. رفع رأسه إلى السقف وانفجر فى ضحكة انتصار هائلة ..

هنا فقط أدركت أن له علاقة بما يحدث .. لا تعرف كيف لكنها تعرف أن هذا يحدث ..

نظرت له غير فاهمة وقالت كلمات على غرار :

- « أنت .. القلم .. كيف ؟ »

قال لها فى هدوء :

- « نعم .. هذا هو سرى الصغير .. ولا أبوح به إلا لشخص أحمل له كل تقدير .. »

ثم أشار بهدوء إلى مقعدها .. قطب جبينه وارتسمت علامات المعاناة عليه ، وراحت يده ترتعش .. فى اللحظة التالية تراجع المقعد للوراء قليلاً ..

ـ « لو جلست لحكيت لك كل شىء .. »

★ ★ ★

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير فى مستشفانا ، وقد قال لها (إيهاب) :

ـ « لم أعرف أنى أملك هذه الموهبة إلا فى سن المراهقة .. كانت أمى تتحدث عن العفاريت التى تتحرك فى حجرة نومى ليلاً .. المقاعد تتحرك والألعاب تعيد ترتيب نفسها .. لم يخطر لى ببال أن هذا من فعلى أنا لكنى حين كبرت بضع سنوات عرفت أن هذا فى مقدورى . إن القوى النفسية تبلغ ذروتها وأقوى طاقة لها فى سن المراهقة .. ويبدو أن وحشًا كان يحاول التحرر من داخلى وأنا لا أعرف .. »

قاطعت أنا (هيام) وهى تحكى وقلت لها :

ـ « يطلقون على هذه الظواهر اسم rappings »

هزت رأسها وواصلت سرد القصة ..

قال لها (إيهاب) :

ـ « لا أملك أى تفسير لهذا .. لا أعرف لماذا أنا بالذات ..

على قدر علمى لم تمر أمى بأية تجربة غير طبيعية فى الحمل .. إلا أننى أخفيت عنها هذا السر .. أخفيته عن أخى ، ورحت أحاول استكشاف أبعاد هذه القدرات .. لم تكن خارقة .. هى لا تتجاوز تحريك قلم أو كوب أو تقليب صفحات كتاب .. لم أكن قادرًا على تحريك سيارة كما أرى فى السينما لكن هذه الموهبة أثارت اهتمامى .. أولاً حاولت ألا يعرف أحد بالأمر لأنى لا أريد أن أتحول إلى فقرة سيرك .. لا أريد أن يخافنى الناس .. ثانيًا حاولت تنمية هذه الموهبة .. وقد بلغت الدرجة التى مكنتنى من رفع مقعد عبر الغرفة .. »

قاطعت (هيام) قائلاً :

ـ « هذا هو الـ Levitation .. أو رفع الأجسام فى الهواء .. إنه جزء مهم من التحريك النفسى »

قالت فى شىء من الحرج :

ـ « د. (رفعت) .. دعنى أحك قصتى ثم تكلم كما تريد .. »

ـ « فقط أضع بعض النقاط على الحروف .. »

وواصلت سرد قصتها ..

إن هذا سهل .. الجزء الأول من القصة يحكى عن اكتسابه الموهبة .. الجزء الثانى هو الموهبة ذاتها ..

الحقيقة أن الرجل لم يحاول قط أن يصنع شيئًا خلاقًا بهذه الموهبة لكنه كان فخورًا بها .. من الجميل أن تعرف أنك قادر على فعل شىء يعجز عنه الآخرون ، وقد أفادته هذه الموهبة فى مناسبات معدودة تافهة .. ذات مرة كان فى الزحام لا يستطيع الانحناء ، ووجد مبلغًا من المال على الأرض ، وهكذا ارتفع المال ليدخل جيبه من دون أن يلاحظ أحد.. دعك من قدرته على التعامل من مقعده مع جهاز التليفزيون فى عصر لم نعرف فيه جهاز التحكم عن بعد (ريموت كونترول) .. وحين ذهب إلى فرنسا لدراسة الفن رأى نماذج عدة لهذه الموهبة ، كما قابل نصابين كثيرين ..

سألته (هيام) حيث جلست فى مكتبها :

– « ولماذا تصارحنى بشىء كهذا ؟ »

فكر قليلاً ثم قال :

– « لا أعرف .. ربما لأجعلك تملكين ما لا يملكه سواك .. ليس لدى كنز من المال لهذا أمنحك كنزى الوحيد : سرى .. »

وما لم يقله .. ما لن يقوله أى رجل فى الحقيقة .. هو أنه يريد إبهارها ..

لقد سئمت التظاهر بأنها لا تفهم .. كل كلمة يقولها هذا الرجل تصرخ : أنا أهيم بك ..

لكنها لا تريد الاعتراف بهذا حتى لا يبرز السؤال : وماذا بعد ؟

فجأة رأت القلم يرتفع فى الهواء ..

راحت شفتاها ترتجفان فهى لم تر شيئًا كهذا يحدث قط .. لم تصدق عينيها ..

القلم يتجه إلى المفكرة المفتوحة ، ثم يبدأ فى الحركة .. إنه يرسم وجهها !

رفعت عينيها إلى (إيهاب) فرأته مقطبًا .. كل عضلة فى وجهه ترقص رقصة صاخبة .. الأوردة فى جبهته توشك على الانفجار .. يداه ترتجفان .. كأنه موسيقار فى ذروة السيمفونية ..

أخيرًا استرخى جسده فسقط القلم .. عاد مجرد قلم برىء ساكن ..

– « أرجوك ألا تفعل هذا ثانية ! »

قالتها وهى ترمق وجهها الذى ارتمى على المفكرة أمامها ..

قال لها وهو يلهث ويجفف العرق على جبينه :

ـ « لماذا ؟ »

نظرت له وابتلعت ريقها .. ثم قالت :

ـ « لأن هذا .. لأن هذا يخيفنى ! »

★ ★ ★

4

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير فى مستشفانا ، لكنها لم تستطع ابتلاع الفكرة ..

لماذا تقتل هذه الحشرة الحمراء القشرية التى وجدتها على جدار غرفتك ؟ من قال إنها مؤذية ؟ هل آذتك ؟ لا .. لكن قصة (البطة السوداء) تؤدى عملها فى كل مكان .. الاختلاف .. نحن لا نقبل الاختلاف أو الغرابة .. ونطاق عدم القبول يتباين من قتل الحشرة الغريبة على جدار غرفتك ، إلى ما يحدث لمشجع الأهلى الوحيد الجالس فى مدرجات الزمالك ، إلى تاريخ أوروبا الملطخ بدماء البروتستانت والكاثوليك ..

لهذا لم تستطع (هيام) قبول ما رأته .. لقد عرض عليها الرجل موهبته لينال إعجابها ، لكنها أثارت ذعرها .. ولم تعد تنظر إليه إلا كشىء متفرد شاذ ..

هنا يعرف القارئ أنها جاءت مكتبى وعرضت على القصة طالبة رأيى ..

كان رأيى واضحًا وينم ـ كالعادة ـ عن خبرة هائلة :

ـ « لا أعتقد أن التحريك عن بعد من الأمور التى تساعد على إنجاح الزواج .. وكذلك لا أعتقد أن هناك زيجة فشلت

لأن الزوج يحرك الأشياء عن بعد.. إذن المقياس الوحيد لنا هو : هل تميلين إليه كرجل أم لا ؟ »

قالت وهى تتحسس عويناتها :

- « لا أميل .. لنقل إننى بدأت أخافه .. »

- « إذن هو القول الفصل .. تخلصى منه ولكن من دون دماء .. قولى له : أنت إنسان ممتاز وأنا أعتبرك أخًا .. فى ظروف أخرى كان هذا يشرفنى .. ستجد من هى أفضل منى .. إلى آخر هذا الهراء .. أنا لن أعلمك ما يجرى فى دمكن جميعًا .. »

نفذت كلامى حرفيًا .. وحين جاءها فى المرة التالية كانت خارج العناية المركزة .. ابتسم لها فقالت فى رفق وكل ما تملك من كياسة :

- « أستاذ (إيهاب) .. أنت إنسان محترم وموهوب .. لكن عندى رجاء واحدًا .. هو رغبتى فى ألا ننفرد ثانية .. أعتقد أنك تعطل عملى إلى حد ما .. دعك من القيل والقال .. إن الممرضات يريننا هنا ولايعرفن عما نتكلم .. أعنى أنك تسبب لى الحرج .. بعضه لاكله .. أنت إنسان ممتاز وأنا أعتبرك أخًا .. فى ظروف أخرى كان هذا يشرفنى .. ستجد من هى أفضل منى .. »

نظر لها غير مصدق واتسعت عيناه .. شكله يصير مخيفًا بالمناسبة فى ظروف كهذه ..

قالت فى وهن :

- « إن ما بيننا هو أخوك .. شفاه الله .. لا أعرف متى ولا كيف يمكن أن أقول إنه شفى .. لكنى مسئولة عنه .. أمره يهمنى فعلاً .. هذا هو كل شىء بيننا وفيما عدا هذا لا يوجد شىء .. ولو كنت تعتقد أنك قدمت عرضًا فإننى أرفضه .. »

كانت تتوقع أن ينهض .. ينظر لها نظرة جريحة وتدوى موسيقا أفلام (عبد الحليم حافظ) ثم يستدير على عقبيه، ويبتعد دون كلمة واحدة .. لكن تصرفه كان غير حضارى بالمرة ..

لقد وقف فعلاً .. اتسعت عيناه إلى آخر مدى ممكن ..

ثم هتف بصوت لابد أنه أيقظ حالات الغيبوبة :

- « بعد كل ما قدمته لك تقولين هذا ؟ »

- « أستاذ (إيهاب) .. أرجو أن تخفض صوتك قليلاً .. أنت لم تقدم لى شيئًا ! »

- « لقد منحتك ثقتى الكاملة .. والآن ... »

كنت أنا بالصدفة متجهًا إلى العناية المركزة ، فسمعت ورأيت طرفًا من هذه المحادثة .. اتجهت إلى المكتب الصغير وتجاهلت الفتى الواقف وسألتها :

ـ « هل ثمة شىء يا دكتورة ؟ »

نظرت لى وللرجل الواقف ثم قالت :

ـ « لا شىء يا دكتور (رفعت) .. »

ـ « إذن أرجو أن تصحبينى إلى الداخل .. أريد أن أرى حالة (التجلط العام المنتشر) التى كلمتنى عنها .. »

نهضت وهى تتنفس الصعداء ، وبخطى مذعورة أسرعت المشى نحو العناية المركزة ولم ينظر أحد للوراء ..

هناك داخل العناية المركزة الهادئة خافتة الإضاءة ، نزعت حذاءيها ولبست الحذاء القماشى الأزرق على حين وضعت أنا واقى الحذاء لأنى لم أعد قادرًا على الانحناء .. وسألتنى ، وهى تحكم المعطف الأبيض على ثوبها :

ـ « هل رأيت ؟ »

ـ « هذا هو طبعًا .. »

ـ « وما رأيك ؟ »

ـ « شخصية فميَّة .. لا تطيق أن يقف أحد فى طريقها .. إنه (خاسر سيئ) كما يقول الإنجليز .. ولو كنت مكانك لأخذت حذرى .. إنه قادر على أن يسبب لك المتاعب .. لن يكتفى بغناء (وعشق الروح مالوش آخر .. لكن عشق الجسد فانى) .. »

بدا عليها القلق واصطحبتنى إلى الداخل ..

هنا ـ كأنما هى تنتظرنا ـ صاحت إحدى مشرفات التمريض :

ـ « دكتورة (هيام) .. المريض فى سرير (5) .. تعالى بسرعة ! »

جرت (هيام) إلى الفراش المذكور ولحقت بها .. تبًا ! إن الأرض مغطاة بمشمع الأرضيات وواقى الحذاء يجعلنى أنزلق .. يمكن أن أحطم عنقى فى أية لحظة ..

وقفت جوارها إلى جانب فراش المريض ، وقد قدرت من الملامح على الفور أنه المدعو (هشام) .. هذا وجه يشبه (إيهاب) بالإضافة إلى أنه وجه شخص مر بحادث سيارة مروع ..

كان يلهث .. صدره يعلو ويهبط حتى ذكرنى بأحد المسلمين الأوائل الذين كان كفار قريش يضعون الجلاميد على صدورهم

وهم مكبلون فى الصحراء .. ونظرنا إلى الشاشة فرأينا توترًا عامًا .. كان لونه يدنو من الأزرق بسلاسة تامة كأنما هو الخلاء فى ساعة الغروب ..

قالت فى ذعر :

ـ « سدة رئوية ؟ لا أرى تفسيرًا آخر .. »

دققت انظر وسط كل هذه الخراطيم .. ثم مددت يدى أتحسس جانب الفراش .. هناك أشياء لا تراها حتى العيون الخبيرة المذعورة ، لكننى لم أكن مذعورًا .. ربما لأننى مجرد ضيف خارج الأحداث ..

قلت وقد فهمت ما هنالك :

ـ « لا هذا ولا ذاك .. إن خرطوم جهاز التنفس الصناعى مفكوك .. إلى ببعض الشريط اللاصق لأعيد تثبيته .. »

وهكذا رحت أعيد تثبيت الوصلة الحيوية .. هذا الفتى كان موشكًا على الموت خنقًا .. وقد بدأ تنفسه يعود لرونقه الأصلى ..

هتفت مشرفة التمريض :

ـ « ومن فعل هذا ؟ أنا جوار فراشه منذ ربع ساعة ولم يلمسه أحد .. »

تبادلت نظرة صامتة مع (هيام) ثم قلت للمشرفة المتحمسة :

ـ « فقط راقبيه بعناية .. أعتقد أن هذه الأحداث قد تتكرر .. »

* * *

وفى الرابعة صباحًا انفصل الخرطوم المثبت بالخط الوريدى .. هكذا راح الدم يتدفق من الخط الوريدى بلا توقف ، ولولا أن (هيام) رأت قطرات الدم على الأرض لهلك الفتى كأن مصاص دماء قضى ليلته معه ..

اتصلت بى (هيام) فى دارى وقالت فى جزع :

ـ « حادث آخر .. ماذا يحدث هنا ؟ »

قلت لها فى برود :

ـ « هل تتهمين أحدًا ؟ »

ـ « لا أحد سواى .. لم يكن قرب فراشه سواى ... »

ـ « إذن أنت تعرفين الإجابة .. »

ـ « ماذا ترمى إليه ؟ »

قلت وأنا أتثاءب :

ـ « القصة واضحة .. أنت لا تهتمين إلا بأخيـه .. إذن ليحرمنك هذا الاهتمام .. وليعذبنك بموت شخص تهتمين به كثيرًا .. إن هذه الحوادث تمت بـالتحريك عن بعد.. وأنت تعرفين هذا جيدًا .. »

قالت غير مصدقة :

ـ « يقتل أخاه ليغيظنى ؟ هذا كلام فارغ .. هناك تلك النكتة عن القروى الذى أراد تلفيق تهمة لابن عمه فقتل ابنه هو .. أما أن يحدث هذا فى الواقع ... »

ـ « أولاً هذه ليست نكتة ولكنها حدثت فعلاً .. ثانيًا أنا بالفعل أشك فى القوى العقلية لـ (إيهاب) هذا .. إنه مجنون يا صغيرتى .. لا أفهم كيف لا ترين هذا معى ؟ »

وفجأة سمعتها تصرخ ..

وسمعت صوت ارتطام هائل بالأرض ..

★ ★ ★

5

حينما ذهبت فى تلك الساعة إلى المستشفى ، كانت عضلة ساقى ترتجف تلقائيًا .. فتحوا لى الباب مندهشين .. والحقيقة أنى كنت فى مزيج غريب من النعاس والتوتر والدهشة ..

اتجهت إلى قسم العناية المركزة وقرعت الجرس عدة مرات .. طبعًا الكل نائم الآن حتى من لا يجب أن يكون نائمًا .. فتحت لى الباب ممرضة مرهقة تتثاءب طيلة الوقت وسألتنى بعينيها عما أريد..

ـ « أين د. (هيام) ؟ »

أشارت بعينيها إلى الوراء ، فسألتها :

ـ « هل هى بخير ؟ »

رفعت حاجبيها بما يدل على أنها لا تعرف .. ثم تثاءبت من جديد..

دخلت لأجد (هيام) قلقة كما ينبغى أن تكون .. كانوا قد وضعوها فى فراش خال ولم تكن مصابة لكنها فى حالة صدمة ذعر شديدة .. أطراف باردة .. شعر منكوش .. أنف محمر من البكاء ..

ـ « ماذا حدث ؟ »

قالت راجفة :

ـ « حمدًا لله أنك هنا يا دكتور ... »

وأشارت إلى جهاز الهاتف الموضوع على منضدة قرب الفراش .. جهاز هاتف من الطراز ذى القرص ، وقد كان هناك قفل صغير مثبت إلى القرص لمنع أحد من الاتصال بالخارج .. طبعًا لا بد أن المفتاح مع (هيام) ..

المهم أننى رأيت جوار المنضدة جهازًا مهشمًا على الأرض .. يبدو أنه مرقاب .. قصة قصيرة بليغة جدًّا ..

قالت لى وقد رأت اتجاه عينى :

ـ « لقد .. لقد .. طار .. رأيته متجهًا نحو رأسى وأنا أكلمك فى الهاتف .. صرخت وتنحيت ولو لم أفعل لكانت أجزاء مخى على الأرض أيضًا .. »

نظرت لها من جديد .. ثم سألتها بصوت مبحوح :

ـ « هذا الجهاز العملاق طار ؟ »

ـ « نعم .. أنا لا أستطيع حمله .. »

ـ « تلقائيًّا ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « لكن هذا غير ممكن .. لا توجد قوة تحريك عن بعد بهذا الحجم .. أقوى محرك عن بعد يستطيع أن يزحزح القلم بضعة ملليمترات .. »

ـ « هذا ما حدث .. »

إذن ما نتعامل معه قوة كاسحة .. قوة شبيهة بالديناميت .. لعل هذا الـ (إيهاب) أقوى محرك عن بعد فى التاريخ ..

ولكن هل وصل به الحقد إلى هذا الحد ؟ أن تهشم رأس الفتاة التى تحبها بمجرد أن تبدى رفضًا ؟ هذا الحماس الرومانسى يثير دهشتى .. حتى (دون جوان) لم يصل إلى هذا الحد .. لو كنت أملك هذه القوة فى الماضى لما جرؤت كل الفتيات اللاتى رفضننى يومًا على ذلك ..

قلت لها وأنا أساعدها على الجلوس :

ـ « هلمى .. لا يوجد مجال للبقاء هنا .. هل هناك طبيب آخر معك ؟ »

ـ « نعم .. نعم .. د. (عثمان) .. إنه .. »

- « إذن هذا هو الوقت الذى يستحق فيه راتبه .. سأوصلك إلى دارك .. »

وهكذا لم تجد حلاً آخر سوى أن تصدر بعض التعليمات للممرضات ، ولم تنس طبعًا أن تمر على أطفالها الراقدين على أسرتهم .. سألتها وأنا واقف جوار الباب :

- « هل هذا الـ (هشام) حى ؟ ألم ينغرس المقص فى صدره بعد ؟ »

- « نعم .. يبدو أن الغمة قد زالت .. »

كنت أتمنى لو أملك هذا التفاؤل لكنى بطبعى لا أملك القدرة على توقع ما هو أفضل .. هكذا رافقتها إلى سيارتى الجديدة - جديدة من حيث فترة الاقتناء فقط - وأوصلتها إلى حيث طلبت ..

فى ساعات الفجر هذه حيث تبدو القاهرة صافية ناعسة هادئة ، لا تصدق أنها سوف تتحول إلى خلية النحل هذه وأصخب مدن العالم بعد ساعات قليلة .. هذا التأثير يشعرنى بالحزن .. الشجن هى الكلمة الأدق ..

وقفت تحت دارها ، فدعتنى بلاجدية إلى الصعود .. هززت رأسى فى ملل .. ولم أعرف إن كانت نزلت فعلاً أم لا لأنى انطلقت بسرعة البرق عائدًا إلى دارى .. أريد أن أنااام ..

هذه المرة لن أحلم بأشياء تتطاير فى الجو .. لن أحلم بأى شىء على الإطلاق ..

★ ★ ★

حكت (هيام) فيما بعد كيف أنها نامت فى دارها حتى الواحدة ظهرًا ..

لم تتقلب .. وكانت تعرف أن زميلها سيتولى أمر اختفائها .. لهذا لم تشعر بقلق من أى نوع ، وكانت هذه من اللحظات النادرة التى يصفو فيها ذهنها تمامًا .. الماضى تافه وانتهى والغد لا يعلمه سوى اللّه .. إذن هى لحظة حاضرة طويلة مريحة .. تمط أصابع قدميها فى الفراش إلى آخر امتداد لها كما تفعل قطة تتثاءب وتواصل النوم ثانية ..

فقط فى الحادية عشرة صباحًا أنهضتها أمها العجوز ودست فى فمها شطيرة من الفول ، وسكبت فى فمها كوبًا من اللبن .. ثم واصلت النوم .. نوم له مذاق الفول واللبن ..

عند الظهر اتجهت إلى المطبخ لتستعيد كيانها بقدح من القهوة .. ما زلت أجد حبها للقهوة عجيبًا فأنا ـ لسبب ما ـ أعتبر القهوة مشروبًا ذكوريًا .. المطبخ ضيق والموقد هو (بوتاجاز) صغير من الطراز الذى جعلته المصانع الحربية فى كل بيت .. والكنكة تقرقر على النار .. والشاطور المعلق بجوار الحوض يطير فى ....

الهواء !!!

إنه يتجه نحوها ! لم تفهم هذا إلا فى الثانية الأخيرة .. وقد وثبت على الأرض بينما طار الشىء فوق رأسها .. وسمعته يرتطم بالنملية الخشبية العتيقة .. وحين فتحت عينيها غير مصدقة رأت نصله مغروسًا حتى نصفه فى الخشب الهش ...

نهضت راجفة ، أوشكت على بدء نوبة هستيريا لولا أن دخلت أمها المطبخ فى اللحظة ذاتها .. كانت تريد أن تملأ قلة الماء .. اتجهت نحو الحوض ثم هتفت :

ـ « (هيام) .. لماذا غرست الشاطور فى النملية ؟ »

هكذا اضطرت (هيام) لأن تعود لقواها العقلية والعصبية ، فقالت فى جزع :

ـ « لا شىء .. لا أعرف لم فعلت هذا .. »

نظرت لها العجوز فى شك بعينين رماديتين لا تريان إلا ما تريدان أن ترياه ، وقالت :

ـ « خذى الحذر .. قلت ألف مرة ألا يلمس أحد هذا الشاطور .. طلبت من أبيك أن يتخلص منه لكنه يرفض .. »

والحقيقة أن هذا السلاح القاتل كان يستعمل فى الماضى لتقطيع لحم الخراف فى عيد الأضحى .. لكن هذا الغرض انتهى منذ عشرة أعوام على الأقل ، لأن الأسرة لم تعد قادرة على شراء الخراف ..

ـ « ولا تنسى أن تغتسلى .. إن رائحة المستشفى هذه .. »

كانت تعرف رأى أمها فى رائحة المستشفى .. تشمها من ثيابها وشعرها وأنفها وكل شىء .. رائحة هى إلى أنف الأم أقرب لرائحة الموت أو ـ بلفظة أدق ـ رائحة العذاب البشرى كله ..

هكذا فرغت (هيام) من شرب قهوتها ثم اتجهت إلى الحمام ، وقامت بتشغيل السخان الذى يعمل بالغاز .. استدارت لتحكم غلق الباب وهنا شعرت بأن هناك شيئًا على غير ما يرام .. رائحة الغاز قوية فعلاً ..

نظرت للوراء فوجدت أن الشعلة مطفأة .. الغاز يتسرب بلا انقطاع لكنه لا يحترق .. هكذا استدارت إلى الباب لتفتحه .. لكنها لم تجد المقبض .. نحن نعرف أن البيت قديم وأن كل مقابض الأبواب تخرج فى يدك إذا حاولت انتزاعها .. لكن المقبض كان فى يدها منذ ثانية واحدة وهى تحكم الغلق !

إنه هنا .. فى مكان ما .. لكن أين ؟ راحت تبحث عنه كالمجنونة بينما رائحة الغاز تزكم أنفها ..

تحت المغطس .. جوار المرحاض ؟ هنا ؟ لا اثر له ..

أصابها الذعر فراحت تدق الباب .. لحسن الحظ أنها بكامل ثيابها .. فقط لتنتظر أن يأتى أخوها ليحطم الباب ..

« المية تروى العطشان .. وتطفى نار الحران »

من المذياع اندلع صوت (عبد الوهاب) عاليًا .. لم تسمعه قط بهذا الارتفاع ..

وبدأت تفهم .. هذا الصوت العالى مخصص لكتم صوت صرخاتها !

المحبس ؟ المنظم ؟ كلاهما لا يعمل .. كل شىء لا يعمل فى هذا البيت منذ عشر سنوات ..

« يا جمالها والحوض مليان .. وأنا عايم على وش الميه ! »

تسمع صوت أمها من بعيد تصيح :

« أخفضى صوت المذياع يا (هيام) .. هل جننت ؟ »

لكنها لاتسمع الطرقات .. هذه خاصية فى بيوت كثيرة .. تسمع الآخرين بينما هم لا يسمعونك ..

ومن السخرية أن الأغنية عن الاستحمام .. هل مصادفة ام أن القاتل المجنون يضفى لمساته الساخرة على الموقف ؟

رباه ! إن وعيها يتسرب منها .. الحمام مغلق بإحكام ..

« صدقنى .. خد لك حمام ! »

هناك نافذة صغيرة فوق المرحاض يستحيل فتحها وزجاجها معتم أقرب إلى السواد .. هل تصلح ؟ ربما ؟ لا يوجد حل آخر .. ثمة شىء واحد لا تتصوره .. أن يجدوها بعد ربع ساعة جثة راقدة على البلاط المبتل .. كل شىء إلا هذا ..

هكذا وثبت لتقف فوق المرحاض .. أمسكت بأداة تسليك الحوض التى تشبه الشفاط ووجهت العصا إلى الزجاج وضربت بعنف .. لم يحدث شىء .. وجهت ضربة أعنف فأعنف .. تبًا إن الجهد يجعلها تشهق أكثر .. يجعل جسمها

يمتص المزيد من هذا السم .. لو فقدت وعيها الآن فلن تفيق إلا فى الناحية الأخرى ..

تهشم الزجاج فراحت توسع الفتحة .. ومع التوسيع راح تيار من الهواء المنعش يتسرب إلى صدرها .. ما أثمن الهواء ! يمكنها أن تبقى هنا للأبد !

نظرت للوراء من هذا الموضع .. إلى جوار حوض غسيل الوجه ، فرأت المقبض يرقد متظاهرًا بالبراءة ! ما كان يمكنها أن تراه فى وضعها السابق ..

هكذا وثبت إلى الأرض والتقطته ، فتحت الباب ، ووقفت تعب الهواء كالمجنونة ..

و(عبد الوهاب) ما زال يحاول إقناعها بالاستحمام .

«صدقنى .. خد لك حمام ! »

★ ★ ★

6

كان تعليقى على هذه القصة حين سمعتها هو الذهول التام ..

على قدر علمى لم أسمع بشىء كهذا من قبل .. أبسط الأشياء فى الشخص الذى يحرك عن بعد هو أن يكون قادرًا على رؤية الجسم الذى يحركه .. لا بد من قدر هائل من التركيز .. لا بد من أن يتخيل أن الجسم المادى وجسمه هو متمازجان .. لم أسمع تحريك عن بعد يتم عن بعد لو سمحت لى بهذا التعبير ..

وقد قمت بخدمة صغيرة للفتاة لا أقوم بها كثيرًا ..

أجريت اتصالاً بالولايات المتحدة .. وهى خدمة عسيرة فعلاً من ناحية المصاريف والوقت الضائع .. نحن لا نتحدث عن زمن العولمة الذى نعيش فيه وموضوع القرية الإعلامية .. نحن نتحدث عن زمن كان الاتصال فيه بوالدتك يستغرق وقتًا أطول مما لو (خطفت رجلك) وسافرت لها لتطمئن بنفسك ..

على كل حال استطعت الاتصال بصديقى القديم (إيجور تاركوفسكى) الذى كان متمتعًا بالقوى النفسية قبل أن يتخلى عنها طواعية ، ويتفرغ لدراستها ..

تعرفون أنه يعمل فى جامعة (دوك Duke) بالمختبر الذى أنشاه (جوزيف راين Joseph Rhine) أهم علماء الإدراك الخارق للحواس ESP فى زمننا ..

اهتم بما حكيته له على الهاتف برغم أننى قلت كل شىء فى أربعين ثانية .. لا أتباهى لكن كل خبرة أقدمها للرجل تكون فريدة حقًا .. هو لم يلق خبرة (إزاحة المشاعر) إلا مع التوءمين المصريتين اللتين اعتادت إحداهما إزاحة آلامها لتشعر بها الأخرى ..

كان رأيه قاطعًا : هناك خدعة فى الأمر .. الطبيبة كاذبة أو هناك من يخدعها .. إن قوة التحريك عن بعد لم تبلغ هذا المدى بعد.. لو كان هذا صحيحًا فإن إسقاط الطائرات ممكن ، ولصار هذا الـ (إيهاب) سلاحًا سريًا فائق الخطر .. لكن – من الناحية الأخرى – لا يرى ما يمنع من إن يحرك (إيهاب) أشياء لا يراها .. هناك أمثلة تؤكد هذا ولا تنفيه ..

هكذا وضعت السماعة ، وقد ازدادت أفكارى بلبلة ..

* * *

عند الظهيرة كانت (هيام) تمشى فى فناء المستشفى حين انزلقت إحدى السيارات حيث وقفت فى الممر المائل واندفعت نحوها .. ولولا أن أحد العمال أزاح الطبيبة لهشمتها السيارة .. يؤكد صاحب السيارة أنه رفع فرملة اليد ، وهذا منطقى .. وإلا كيف غادر السيارة فى هذا الممر المنحدر أصلاً ؟

ثمة شىء ما خفض فرملة اليد ، واندفعت السيارة مطيعة قوى الجاذبية التى هوت بالتفاحة فوق رأس (نيوتن) يومًا ما فى الريف الإنجليزى ..

قالت لى وهى تبكى :

– « د. (رفعت) .. إنه مصر .. افعل شيئًا أرجوك .. لقد تمت أربع محاولات ولا أتوقع أن أكون حسنة الحظ فى المحاولة الخامسة .. »

أنا أيضًا توقعت هذا ..

وهكذا سألتها عن طريقة للاتصال بهذا الفتى (إيهاب) .. لم تكن تملك أية وسيلة لكنى تذكرت أنه أخو (هشام) .. لا بد أن هناك بعض البيانات التى تركها فى استقبال المستشفى ..

تمكنت من الحصول على عنوانه ، وانطلقت إلى هناك ..

لا .. لم تكن لدى خطة محددة عما يجب عمله .. هل سأقول له : من فضلك لا تحرك الأشياء فى وجه تلك الطبيبة فهذا يفزعها ؟ طبعًا لا .. غير أننى قدرت أن الموقف سيوجد الطريقة ..

كان يعيش وحده كما هو واضح .. بعيدًا عن بيت الأسرة ... وقد طرقت بابه مرارًا بلا جدوى ، حتى فتح بابه جار عجوز وسألنى عمن أريد.. كان العنوان صحيحًا لكن (إيهاب) قد سافر إلى فرنسا منذ يومين .. هذا معتاد ـ كما قال الجار ـ لأنه كثير الأسفار .. كانوا يعرفون هذا لأنه كلفهم بدفع فواتير الكهرباء والماء وربما الهاتف لو تأخر ..

يمكن أن أتخيل الفنان المطعون فى مشاعره ، والذى لم يعد يطيق البقاء هنا لحظة واحدة .. لهذا حزم أمتعته ليسافر إلى (بلد النور) .. هناك سيجد الفرصة كاملة كى ينسى آلامه ومن اله''ح أن هذا الفتى ليس معدمًا ..

السؤال هو .. ك طها ؟

* * *

ـ « سـافر ؟ »

قالتها (هيام) وهى تهتز كورقة .. إذن متى وكيف ؟ قلت لها :

ـ « لا أعرف .. إما أن موهبته عابرة للقارات ، وإما أن هناك شبحًا يطاردك .. »

كانت قد نجت لتوها من مكواة ساخنة طارت قاصدة وجهها .. ولم تكن فى أبهى حال من الناحية العقلية ..

ـ « إن هذا الذى أمر به لن يستمر .. لا يمكن أن يستمر .. سأفقد عقلى أو أفقد حياتى أيهما أسرع .. هذا الـ (إيهاب) هو الشيطان ذاته .. ليتنى ما رأيته أو سمحت له بمحادثتى .. »

نعم .. أعرف ما تعنيه .. إن ملاحقة شخص يحبك ولا تحبه أمر مزعج .. ربما يصير مخيفًا .. طبعًا أنا لم أجرب شيئًا كهذا ولن أجربه أبدًا نظرًا لظروفى الشكلية ، لكنى لن أنسى فيما بعد اسمه (اعزف ميستى من أجلى) .. المعجبة التى تطارد المذيع الوسيم (كلينت إيستود Eastwood) .. تتطور علاقته بها من المجاملة إلى البرود إلى النفور فالذعر حين بدأ يفهم أنها مجنونة وأنها قاتلة(*) ..

(*) قدمته السينما المصرية فى فيلم باسم (المجنونة) ..

دخلت معها إلى العناية المركزة وتفحصت (هشام) الأخ الذى لن يفيق من غيبوبته على ما يبدو ، وسألتها :

ـ « هل تكررت محاولات قتله ؟ »

حكت شعرها كالقرد ، وقالت :

ـ « لا .. بعد موضوع الخط الوريدى .. لا .. »

ـ « هذا على الأقل يشير بإصبع الاتهام إلى (إيهاب) .. لقد ابتعد فصار عاجزًا عن التأثير .. »

ـ « إذن لماذا يحتفظ بقواه معى ؟ »

ـ « لا أعرف .. ربما كان هذا نوعًا جديدًا من التحريك عن بعد.. سنرى على كل حال .. »

ثم جررتها من كمها كطفل قائلاً :

ـ « أنت موشكة على الإصابة بانهيار عصبى .. »

ـ « موشكة ؟!!!! »

ـ « أنت فى انهيار عصبى .. وأرى أن تعودى لدارك وتتعاطى بعض المهدئات وتنامى .. »

انفجرت فى البكاء حتى نظرت الممرضات لنا فى دهشة :

ـ « حتى هذا لا أقدر عليه .. كلما نمت خطر لى أنه قادر على أن يخنقنى بالوسادة .. لست آمنة فى أى مكان حتى غرفة نومى المغلقة .. تصور هذا !! »

لم أرد وجررتها من كمها إلى سيارتى ..

كنت أشفق عليها .. لكنى استنفدت ما أملك من حيل أو نصائح ..

فليرحمها الله .. فلا يوجد كائن بشرى يستطيع إنقاذها ..

★ ★ ★

كانت نائمة على ظهرها كعادتها .. إنه أسلوب نوم المومياء الشهير ، بل إنها تنام كمومياوات الملكات بذراع على الصدر وذراع إلى جانبها .. الملوك يعقدون كلا الذراعين على الصدر .. لا أعرف كيف لا تختنق فى وضع كهذا. بالإضافة إلى أن خبراء النوم يزعمون أن هذا الوضع يميز الشخصيات الواثقة المسيطرة .. (هيام) شخصية واثقة مسيطرة ! حسن .. لست الحمار الوحيد فى هذا العالم .. ولو كانت تعرف ما يقولون لاضطرت اضطرارًا إلى النوم على جانبها فى وضع الجنين .. فهم يحتمون هذا ..

حجابها الحاجز يتحرك بصعوبة .. كرتا عينيها تتحركان خلف

الجفنين المغلقين .. إنه طور النوم المتناقض Paradox حيث الأحلام فى ذروتها .. العرق ينمو على موضع شاربها لو كان لها واحد .. إنها تئن ..

هى تراه قادمًا فى الظلام .. يقف وسط السحب والغيوم .. يرفع ذراعه فتتحرك سحب وتبتعد سحب ..

يرفع الذراع الأخرى فتطير مكواة ساخنة نحوها لكنها تتفاداها .. المكواة تهشم رأس (رفعت إسماعيل) الأصلع .. من أين جاء هذا الأحمق ؟ لابد أنه مات ..

- « أنت لى .. »

يقولها بصوت واثق .. هادئ .. منوم ..

- « تعالى إلى .. كونى معى .. كونى معى للأبد .. »

القلم يكتب .. الشاطور يحلق فى الهواء نحوها لكنه ينغرس فى عنق (رفعت إسماعيل) .. أما زال حيًا ؟

- « أنت لى .. »

- « دعى الأعباء مع الأعضاء وحلقى مثلى .. »

- « لن يأخذك آخر .. أنت لى ! »

تصرخ بصوت مكتوم .. تقاوم .. تعتصر الوسادة .. صدرها يعلو ويهبط ..

- « أنت لى .. »

إنه يخرج من وسط الغيوم .. الآن ترى وجهه ..

لكنه ليس (إيهاب) ! إن عينيه مغمضتان وعليهما قطعتان من الشريط اللاصق .. هناك خرطوم يخرج من فمه .. أنبوب (رايل Ryle) يخرج من أنفه .. إن الخراطيم والأنابيب تتدلى منه فى كل صوب .. يبدو كأخطبوط مريع ..

إنه (هشام) !

- « أنت لى .. »

العالم كله يتحول إلى جهاز تنفس تقف هى عليه .. بالون أسود يرتفع ويهبط فتنزلق قدماها من فوقه .. وتهوى تهوى تهوى ...

تصرخ ..

ثم تشعر بيد أمها المعروقة ذات الخشونة المحببة تتحسس خدها ..

- « بسم الله الرحمن الرحيم .. انهضى يا (هيام) .. كلا .. لاتقولى ما رأيت حتى لايتحقق .. فقط اقرئى المعوذتين .. هل تريدين بعض الماء بالسكر ؟ »

★ ★ ★

7

قلت لها :

ـ « الأمر واضح .. من زارك فى المنام لم يكن (إيهاب) بل (هشام) .. »

قالت فى غيظ :

ـ « أنا قلت هذا لك .. ولكن ما معناه ؟ »

قلت فى ذكاء :

ـ « لا أعرف .. لكنى سأعرف .. »

* * *

قام د. (محمد إبراهيم) بتثبيت الأقطاب على رأس الفتى الغارق فى الغيبوبة ، وتأكد من أن كل شىء فى موضعه .. ثم قام بتشغيل جهاز تخطيط المخ الكهربى EEG .. وهكذا راح الورق يتدفق ..

لم أكن أفهم شيئًا طبعًا من هذه اللوحات السريالية التى يرسمها الجهاز .. لهذا وقفت عن بعد راسمًا على وجهى معالم البلاهة .. ووقفت (هيام) تراقب المشهد فى توتر ..

فى النهاية قص د. (محمد) الورق وطواه ثم راح يتفحصه مستعملاً طرف القلم الجاف بتلك الطريقة التى تنم عن احتراف .. أنا أعرف جيدًا المحترف من الهاوى حين يتفحص أحدهما تخطيط القلب أو المخ .. كما يمكنك أن تعرف التاجر أو الصراف من طريقة عده للمال .. أما الهاوى فيعد المال كأنه أوراق لعب ، وكأنه يبحث عن (الكومى) ..

قال لى بعد ما فرغ من القراءة :

ـ « هناك نشاط مخى غير عادى .. هذا الرجل يفكر فعلاً .. أنا لم أر حالة غيبوبة كهذه من قبل »

سألته فى حذر :

ـ « هل يذكرك هذا النمط بالنشاط الزائد للمخ لدى ذوى القوى النفسية الفائقة ؟ »

هزّ رأسه فى ثقه :

ـ « نعم .. نعم .. وكنت أريد أن أسألك عن تاريخ هذا الفتى .. »

ثم أشار إلى الممرضة كى تفك الجهاز .. ووعدته أن أمر عليه فيما بعد..

تبادلت النظر مع د. (هيام) .. نظرت لي في رعب وعيناها تقولان في صمت :

ـ « ما يعني هذا كله ؟ »

قلت لها وأنا أنظر إلى الباب في حذر :

ـ « هل لك أن ترافقيني إلى مكان هادئ ؟ أريد الابتعاد عن جو المستشفى .. »

هزت رأسها في استسلام ورافقتني إلى الخارج ..

كان هناك كافتيريا صغيرة قرب المستشفى ، فدخلناها .. طلبت قدحين من القهوة السادة الثقيلة فنظر لي النادل برعب .. من المفترض أن أطلب القهوة لنفسي ، وعصير برتقال أو ليمون لها ، أما أن تشرب القهوة السادة الثقيلة كأحد (المعلمين) في (وكالة البلح) فهذا أمر لا يصادفه كثيرًا ..

جاءت القهوة فجرعت (هيام) جرعة كبيرة ثم سألتني بعينيها قبل فمها :

ـ « وماذا ؟ »

قلت مفكرًا :

ـ « (هيام) .. نحن لا نعرف أي شيء عن الغيبوبة .. لا نعرف أين يكون العقل الواعي في تلك اللحظات .. أين يوجد هذا العالم السحري ما بين اليقظة والموت ؟ (هشام) الآن في هذا العالم ويلعب بقواعده .. »

* * *

إنه غائب في عالم آخر لا تعرف مقاييسه ولا ما يحدث فيه . فقط تقف تراقب وجهه الساكن شاعرة بأنه اجتاز البوابة .. إنه يعرف ما لا نعرف ، وقد ازداد حكمة بما لا يقاس ..

* * *

ـ « سأبني نظريتي على افتراضين .. الافتراض الأول هو أن (هشام) يشعر برقتك معه ومعاملتك الحانية له .. ربما كان يسمعك وشعر بلمساتك .. لا أعرف بالضبط الطريقة التي يشعر بها مريض غيبوبة .. ما يهمني هو أنه وقع في حبك وهو في هذا العالم .. هذه أول قصة حب أعرفها بين رجل في غيبوبة وطبيبته .. لكني لا أرى الأمر على أي ضوء آخر .. لقد وقع في حبك في ذات الوقت الذي شعر فيه أخوه بالشيء ذاته .. الافتراض الثاني هو أن الأخوين يملكان قوة التحريك عن بعد.. هذا مقبول باعتبار أنهما أخوان يملكان ذات الصفات الجينية والبيئية والنفسية .. »

شرقت بالقهوة فراحت تسعل ، فناولتها كوب الماء البارد لتهدأ قليلاً ..

قلت وأنا أنظر حولى :

ـ « هل أكمل أم أنك مصرة على الوفاة هنا ؟ »

ـ « تفضل .. تفضل .. »

ـ « فى البداية عرضك (إيهاب) لبعض محاولاته الساذجة .. تحريك القلم أو المقعد .. أعتقد أنه لم يحاول قتل أخيه .. قواه لم تبلغ هذا المدى الساحق .. رأيى الخاص أن (هشام) حاول الانتحار ذاتيًا .. ثم ترك (إيهاب) كل هذا وسافر إلى فرنسا ليغرق أحزانه فى شارع (الشانزليزيه) .. هنا جاء دور موهبة (هشام) التى تضخمت جدًا بفعل ما يمر به من ظروف فريدة .. لقد قرر (هشام) أن يحتفظ بك للأبد وأن يضمك إلى عالمه .. كيف ؟ بقتلك بإدخالك فى غيبوبة .. »

تقلصت يداها على حافة المنضدة وكمشت الشرشف فى توتر ، فقلت :

ـ « نعم .. كل ما تمرين به يقوم به (هشام) فى غيبوبته .. ومن عالمه الذى نجهل عنه كل شىء .. أعتقد أنه فى ذلك العالم أكثر شفافية ، ويمكنه أن يكون معك حيثما كنت .. هذا يفسر كيف لاحقتك الأشياء الطائرة فى الحمام .. »

قالت فى رعب :

ـ « حيثما كنت ! »

ـ « حيثما كنت .. »

سألتنى وهى تحرك يديها بلا انقطاع على حافة المنضدة :

ـ « وإذا .. وإذا مت .. هل أكون معه ؟ إنه غير ميت .. »

ـ « نحن لا نعرف ما يعرفه .. أعتقد أنه يهدف إلى إدخالك فى حالة موت دماغى .. وبهذا تكونين معه فى عالمه للأبد .. الحلم الأبدى للعاشق .. لسوف يكون دليلك فى هذا العالم كما اقتادت (بياترس Beatrice) حبيبها الشاعر الإيطالى (دانتى Dante Alighieri) فى العالم الآخر .. هذا يبدو رومانسيًا إلى حد البكاء ! »

توحش وجهها وهتفت :

ـ « أنت تجده رومانسيًا وأنا أجده مروعًا .. ما هو الحل ؟ »

قلت شارد الذهن :

ـ « الحل هو إيقاف جهاز التنفس .. عندها يرحل نهائيًا عن عالمنا .. لكن هل تجسرين على هذا ؟ هل أجسر على

هذا ؟ لا أحد يجسر .. إن تفسير الموقف عسير ولن يقبله أحد ، ثم إن القتل الرحيم Euthanasia أمر يحرمه القانون ، ولو فعلناه خلسة فلن يرحمنا ضميرنا ولن نجد ما نقوله فى يوم مشهود .. »

من دون كلمة نهضت ، فأخرجت بعض أوراق العملة ووضعتها على المنضدة ، ثم غادرنا المقهى ..

كنت أفكر فى موقفها العسير .. طبعًا القتل غير وارد لكننى سأعانى كثيرًا يوم أسمع خبر وفاتها .. لماذا لا يكون هذا الأحمق مهذبًا ويقرر أن يموت ؟ إنه لن يعود لوعيه أبدًا ..

كنت شارد الذهن .. حين سمعت المارة يصرخون :

ـ « احترسى ! »

حسبت أنهم يكلمون امرأة تمشى خلفنا ثم نظرت لأعلى لأرى إشارة المرور التى فقدت توازنها وتمسكها بالأرض فراحت تهوى بلا تردد نحونا !

تراجعت للوراء وجذبتها من يدها .. وكانت هى أسرع منى فقد وثبت ..

وفى الثانية التالية هوت الإشارة على سيارة فارغة لا أحد فيها .. طبعًا يمكن تخيل ما حدث للمعدن والزجاج .. يمكن تخيل الارتطام المعدنى الصاخب المهول ..

لو كنا فى طريقها أو كان قائد السيارة فيها لكانت مأساة تتحدث عنها الأساطير ..

بعد ثلاثة أيام مات (هشام) ..

سألتها عن سبب الوفاة فقالت وهى تتحاشى عينى :

ـ « كانت وفاة دماغية .. لم يبقه حيًا إلا جهاز التنفس الصناعى .. كانت وفاته مسألة وقت .. »

نظرت لها فى حدة وعدت أسألها :

ـ « دون تدخل بشرى ؟ »

للمرة الأولى التقت عينانا وقالت فى تحد :

ـ « دون تدخل بشرى .. هل تعتقد أننى كنت سأفعل هذا بدم بارد ؟ »

ـ « يمكن عمل هذه الأشياء من دون دم بارد .. يمكن أن ترتجفى وتبكى وتمخطى .. لكنك برغم هذا تفعلينه .. كل النساء اللاتى دسسن السم لأزواجهن ارتجفن وهن يعملن هذا .. »

قالت ، وهى تجمع حاجياتها :

ـ « د. (رفعت) .. لقد انتهت القصة .. فلا تتهمنى بما لم أفعله .. »

ثم أضافت وهى تتجه للباب :

ـ « بالمناسبة .. لو كان الكابوس الذى رأيته مرسلاً منه فقد رأيت أنك مت مرتين .. أعتقد أنك كنت فى جدول أعماله .. ربما اعتبرك شاهدًا خطرًا .. يمكنك أن تحتفل بنجاتك .. »

ـ « والآن لم تعد الأشياء تتطاير نحوك ؟ »

ـ « كفت تمامًا .. »

لن أعرف الحقيقة أبدًا .. من الناحية الموضوعية لا أتصور أن تفعلها فتاة ملائكية مثل (هيام) .. فتاة تحولت إلى شمعة حية من أجل مرضاها .. لكن لو وضعنا فى الاعتبار كل ما تعرضت له وكل هذا الضغط النفسى ، نجد أنها تغيرت كثيرًا .. ثمة بريق لا شك فيه من الشراسة فى عينيها .. على الصعيد الآخر ليس أهون لدى الطبيب من فك وصلة جهاز التنفس .. لحظة وينتهى الأمر ثم يعيدها لمكانها ..

كانت تبتعد .. هذه المرة بلا أجسام متطايرة ولا سيارات تندفع نحوها ..

للحظة وهى تبتعد فى الممر التفتت إلى الوراء فالتقت عينانا ..

خيل إلىَّ أننى رأيت الحقيقة خلف زجاج العوينات ..

كانت هذه هى القصة الأولى ..

تجربة فريدة هى عن ظاهرة التحريك عن بعد التى يمارسها رجل فى غيبوبة ..

الآن ننتقل لوجه آخر من وجوه التحريك عن بعد .. نتكلم عن ظاهرة أكثر غرابة .. عن ساحر نصاب .. عن كاهن أخير وعجوز أصلع وأشياء لا رابط بينها ..

تعالوا إذن نطالع هذه القصة ..

* * *



1

على الشاشة أنذرنا المذيع اللبق أن نأخذ حيطتنا ..

لم أصدق ما يقول .. هذه دعاية رخيصة على كل حال ..

كنت جالسًا أمام التليفزيون ، وقد قمت بتربيع ساقى على الأريكة من تحتى .. إنه لعذاب حقيقى أن ترغم على الجلوس فوق هذه العظام البارزة لكن لا أجد طريقة أخرى .. وفوق الورق وضعت قطعة من الورق المقوى عليها أوراقى .. برنامج المؤتمر .. الورقة العلمية التى أزمع تقديمها .. جريدة (ديلى ميرور) .. خطابات .. إلخ ..

وكنت أقوم بما أقوم به ، وعين على الورق بينما عين أخرى تتابع التليفزيون من حين لآخر ، كالحرباء التى تحرك كل كرة عين فى اتجاه مستقل .. فيما بعد سمعت أغنية ساخرة تقول (الله يكون فى العون .. الحلوة بتذاكر قدام التليفزيون) .. هذا يلخص الموقف بالضبط فيما عدا أنى لست (حلوة) على الإطلاق ..

كنت فى (لندن) أحضر أعمال ذلك المؤتمر شديد الأهمية عن أمراض الدم ، وقد كان علىَّ أن أتكفل بنفقاتى بصدد الإقامة ؛ لذا اخترت هذا الفندق المريح الرخيص عند

أطراف المدينة .. إنه عتيق جدًا لكنه كما قلت مريح رخيص .. يمكن القول إننى صرت (شيخ حارة) فى لندن وأعرفها شبرًا شبرًا .. غرفتى هنا نظيفة مريحة ، وإن كانت تعطيك انطباعًا بأنها شهدت حريقًا فى زمن بعيد .. ربما نسى دوق (ولنجتون) شمعته موقدة بعد نومه أو شىء من هذا القبيل .. طبعًا هذه تفاهات بالنسبة لمن أراد أن يسكن بالملاليم التى أملكها .. دعك من أن هذا الطابع العتيق جزء من سحر إنجلترا . رائحة الزمن هى ما تشمه فى كل مكان ..

لا أعرف سر هيامى بإنجلترا لكنى أحبها حقًا .. ربما هى ذكريات الماضى .. ربما لأن لها رائحة الحب الأول والأخير .. على الأقل أعرف أن (ماجى) فى مكان ما هنا تتنفس ذات الهواء وتتكلم نفس اللغة ..

لكن - لابد من بعض الحظ العاثر - لم تكن هنا على الإطلاق .. كانت فى اليابان تحضر مؤتمرًا فيزيائيًا ما .. لا تنس أنها أستاذ فيزياء .. تخيل أن هذه العزيزة الرقيقة أستاذ فيزياء .. تتحدث ميكانيكا الكم وسرعة الضوء وكل هذه الألغاز التى لن أفهمها حتى أموت .. تتحدث فى كل هذا .. وتحبنى ..

الخلاصة أنها لم تكن هنا .. وقد جعل هذا مزاجى فى غاية السوء .. أن آتى لإنجلترا فلا أراها .. هذا شىء يفوق تحملى .. دعك من أن المؤتمر كان شديد الأهمية لكنه ممل .. يبدو أن كل شىء مهم فى هذا العالم ممل ..

على أن مسرة أخرى كانت تنتظرنى هنا .. هذه من المرات القليلة فيما تبقى من حياتى التى أقابل فيها (هن - تشو - كان) .. نعم .. كاهن (النافاراى) الذى كان يعيش عندى فى بيتى يومًا ما ، والذى كبر وانفصل عنى كأى طفل ربيته حتى كبر .. إنه كما تعلم يعمل مع الصينيين .. ماذا يعمل ؟ كل شىء فى الواقع .. وهو فى هذه الآونة موجود فى لندن .. هذا يجعل غدى باسمًا لأنى أحب هذا الفتى فعلاً .. بمجرد أن ينتهى كابوس المؤتمر فى الرابعة عصرًا ..

دق الباب فاتجهت لأفتحه متثاقلاً .. إن تحرير قدمى من هذا القيد يحتاج إلى عملية معقدة ..

على الباب وقفت تلك الفتاة الرقيقة (سارة ماكميلان) .. إنها صحفية أو رسامة أو طبيبة أو مهندسة أو ممثلة أو عالمة فلك .. كل ما أعرفه أنها جارتى وأنها لاتكف عن طلب أشياء .. يبدو أنها لم تجلب معها أى شىء إلى هذا الفندق .. هى من الطراز الذى نطلق عليه فى مصر (طرزان) ..

سألتنى فى رقة كالعادة :

ـ « هل أجد عندك ثقابًا ؟ »

قلت لها وأنا أفتش فى جيب روبى :

ـ « لن تجدى بسهولة ذلك الرجل الذى تسألينه عن ثقاب ، فلا يسألك عن سبب احتياجك له وأنت فى فندق .. صدقينى يا عزيزتى .. لو قابلت هذا الرجل فلا تتركيه .. إنه كنز .. »

نظرت لى وانفرجت شفتاها على عرض لأسنانها النضيدة البيضاء وقالت :

ـ « سأضعك فى القائمة .. »

ـ « كلهم يتظاهرون بأنهم ليسوا فضوليين يا ملاكى لكنهم كذلك .. صدقينى .. يجب أن تحسنى الاختيار »

طبعًا هى مهذبة لهذا لن تقول لى إنها تفضل إشعال النار فى نفسها بهذا الثقاب على أن تصير زوجتى ، لكن عينيها قالتا ما تريد .. وقالت عيناى : وهل تحسبين أننى من الحماقة بحيث أعرض هذا أصلاً ؟

لذا أغلقت الباب وعدت لجلستى ..

الخلاصة أننى كنت أتابع التليفزيون فى غير اكتراث ، حتى رأيت المذيع يزف لنا النبأ الذى انتظرناه طويلاً ولا أعرف متى :

ـ « سيداتى سادتى .. أرجو أن تحيوا (يورى جيلر) ! »

أنا أعرف (جيلر Uri Geller) .. لهذا وضعت القلم جانبًا ورحت أرمق الشاشة ..

(جيلر) من الشخصيات المثيرة للجدل فى عالم الإدراك الفائق للحواس ESP .. وحتى نشأته غريبة مختلطة .. إنه نصف مجرى نصف نمساوى .. ولد فى إسرائيل ويعيش فى إنجلترا .. بالنسبة لى كان إسرائيليًا وهذا يكفى كى أحمل له شحنة من العدوانية لا بأس بها .. ثم عرفت أنه مولع بالظهور ، ثرثار كصرصور الحقل فكرهته أكثر .. هذا الرجل لا ينتعش إلا حين تدور الكاميرات وتسطع الأضواء ، والطريقة المثلى لقتله هى أن تتجاهله ، فقط كى يخرج عليك بادعاء آخر ..

يقول خبراء الإدراك الفائق للحواس إنه مجرد نصاب ، وإن ما يقوم به يمارسه الحواة فى الملاهى الليلية دون أن يزعموا شيئًا إلا أنها خفة يد وبراعة .. هو يمارس الأفعال ذاتها ويزعم أنها موهبته الخاصة ..

لكن (جيلر) يجيد شيئًا آخر .. إنه يعشق المحاكم ويقاضى كل من يشك فى موهبته ، وخاصة الساحر الشهير (جيمس راندى) الذى اتهمه بأنه لا يملك شيئًا من هذه المواهب التى يزعمها لنفسه .. على الفور قاضاه (جيلر) لكنه لم يحصل على الملايين التى طالب بها .. آخر شىء يمكن أن تقنع به القاضى البريطانى الوقور تحت شعره المستعار ، أنك تستطيع تحريك الأشياء عن بعد ..

ولو قرأ (جيلر) هذه الكلمات التى أكتبها الآن لرفع قضية على فورًا ، لأنه لا يقضى وقته فى التأمل النفسى قدر ما يقضيه فى مقاضاة خصومه ..

على الشاشة ظهر (جيلر) .. يسهل أن تمقته على الفور لكن حماسة الجمهور كانت غير عادية .. شاب وسيم هو ؛ وربما لهذا السبب صار نجمًا إعلاميًا يتصدر أغلفة المجلات كلها .. لكنك ترى فى عينيه نظرة النصاب .. لن تخطئها أبدًا .. إنه نصاب سواء كان يصارح فتاة بحبه أو يحرك الأشياء عن بعد .. دعك من أنه حريص فى أكثر المناسبات على أن يضع الطاقية اليهودية على مؤخرة رأسه ، وهذا أسلوب لا يفشل أبدًا للغزو الإعلامى فى الغرب .. إنه يهودى .. إذن هو على صواب دائمًا ..

قال له المذيع :

ـ « (يورى) .. أنت قلت إنك ستثنى الملاعق أمامنا دون أن تلمسها .. هنا والآن .. وأمام عدسات الكاميرا .. فهل توافق ؟ »

قال الرجل بثقة :

ـ « نعم .. لهذا أتيت .. لكنى أعرف أن المشاهدين فى التليفزيون يراقبوننا الآن .. أطلب منهم شيئًا واحدًا هو أن يبعدوا أى جسم معدنى عن الشاشات حتى لا يتأثر بقواى النفسية(*) .. »

ـ « إلى هذه الدرجة ؟ »

قال (جيلر) :

ـ « نحن لا نتكلم عن طاقة قابلة للتبديد .. نحن نتكلم عن طاقة مثل الليزر لا تتشتت .. ولسوف تصل عبر الأثير إلى المشاهدين كاملة غير منقوصة .. »

(*) الموقف حدث فعلاً فى أوائل السبعينات .. لـ (جيلر) بالمناسبة موقع إنترنت عملاق يعرض فيه مليون جنيه على من يرسل له فيلم فيديو يثنى فيه ملعقة ..

تصاعدت شهقات الحماس .. على حين كرر المذيع :

ـ « للسادة المشاهدين فى بيوتهم .. أكرر تحذيرى .. أبعدوا كل ما هو معدنى عن شاشة التليفزيون »

وسلطت عدسات الكاميرا على الملاعق ، على حين وقف (جيلر) أمامها ومسح وجهه كأنه يغسل ملامحه .. ثم شهق بعمق ..

قال المذيع :

ـ « إنه يركز .. »

ـ « ش ش ش ! من فضلك .. لا تشتتنى .. »

ظلت عدسات الكاميرا مسلطة على الملاعق .. هذه موهبة مهمة لى ؛ لأن كل ملاعقى فى شقتى بمصر مثنية .. أنا بحاجة إلى من يعيد الملاعق لحالتها الأولى لو وجد ..

مر الوقت .. الرجل يتوتر ولا شىء يحدث ..

فشل تام كما أرى ...

يا له من موقف سخيف ! رأيت فى مصر برنامجًا التقى بنصاب مشعوذ ، يزعم أنه يدهن كفه باللون الأسود من ثم

تتحول إلى تلفزيون يمكنك أن ترى كل شىء فيه .. وقد دهن الرجل يده بثقة ، وهو لا يكف عن ترديد : لدينا هنا كل العلم .. لكن يا للخسارة !! لا نكف عن الحقد على بعضنا .

وراح ينادى (شمهورش) كى يجيبه .. فلما لم يرد راح يتوسل إليه : (شمهورش) .. أنا فى غزوة مع الحاكم .. أغثنى .. (شمهورش) ..

كان يستعمل هذه الألفاظ ذات الطابع الدينى ليوحى بصدقه .. (غزوة مع الحاكم) لا تعنى إلا إنه (سقط فى كبسة من كبسات شرطة مكافحة النصب) .. لكنه يحاول إعطاء الأمر طابعًا مهيبًا يذكرنا بعلماء المسلمين الأوائل حين كانوا يحاكمون أمام (الحجاج بن يوسف) مثلاً .. طبعًا لم يستجب الأخ (شمهورش) .. ربما كان هذا بسبب الحقد ..

هنا أيضًا لم يأت (شمهورش) لنجدة أخينا (يورى جيلر) .. حتى إنجلترا يغزوها الحقد ..

ساد صمت رهيب ثم أعلن (جيلر) :

ـ « آسف .. لا أستطيع ثنى الملاعق .. إن موهبتى ليست كالتيار الكهربى تفتح وتغلق بمفتاح .. لا أشعر أننى على ما يرام .. »

ضحكت كثيرًا .. المشكلة أن هذا الطراز لا يشعر بالخجل أو يحبط .. لسوف يخوض تجربة مماثلة غدًا .. الوقاحة وقلة الحياء هى موهبة هذا النمط البشرى الوحيدة ، ولو كنت مكانه لانشقت الأرض وابتلعتنى ..

هكذا نهضت واخترت قناة أخرى ، وكانت تذيع مجموعة أغان لمطربة شقراء حسناء .. جميل .. هذا يساعدنى على التركيز لأنى لا أهتم بهذه الأمور على الإطلاق أو لم أعد أهتم .. هذه القناة تصلح كجهاز مذياع يبطن خلفية أفكارى ..

وقضيت نحو ساعة أراجع الأوراق .. لا أريد أخطاء أو أسئلة محرجة غدًا .. سيكون عتاة العلماء فى مؤتمر الغد ولا أريد أن أبدو أحمق ..

أخيرًا تأهبت للنوم فنهضت وأنا أشعر أن ساقى ديناصور ينهض من رقدته التى بدأت فى العصر (الباليوزى) .. من العبقرى الذى وصف هذا الشعور بـ (التنميل) ؟

توجهت لمفتاح النور لأغلقه حين حانت منى لفتة إلى المنضدة المواجهة لجهاز التليفزيون ...

ألم تكن هذه سلسلة مفاتيحى ؟

ماذا دهاها كى تنثنى على نفسها بهذا الشكل ؟

* * *

2

انتظرت حتى فرغ (هن ـ تشو ـ كان) من مكالمته الهاتفية ، ثم خرج من الكابينة وأعاد وضع العوينات السوداء على وجهه .. بالنسبة للناس كان مجرد رجل أعمال صينى وسيم متأنق .. يصعب على من يراه أن يصدق كيف قابلته يومًا ما ، وكل قصته مع مذهب (النافاراى) .. إلخ .. لقد اندمج بعالمنا .. ربما أكثر من اللازم ..

قال لى بالعربية التى يجيدها :

ـ « هيا يا (ريفاااات) .. »

مشيت جواره فى ميدان (الطرف الأغر) أو (ترافلجار Trafalgar) ـ حسب اسمه ذى الأصل العربى ـ وسط كل هذا الحمام ، وأنا أرمقه فى استمتاع .. شعور غريب فعلًا لا أستطيع وصفه إلا بأنه شعور أب فخور ..

سألته وأنا ألقى بالحب لبعض الحمام العملاق الذى لا يخاف ولا يحترم أحدًا :

ـ « ماذا تفعل هنا ؟ »

قال بطريقته المقتضبة :

ـ « بعض التوعية الثقافية .. لقد صرت شيوعيًا ومهمتى أن أبشر بالشيوعية فى هذا البلد الرأسمالى العتيد .. »

كان يتهكم طبعًا .. فهو أصلاً لم يحب الصينيين ولم يندمج معهم .. إنهم بالنسبة له الأعداء الذين استولوا على التبت ، لكنه مضطر للاندماج معهم ليعيش .. أى أن الشيوعية بالنسبة له (أكل عيش) .. ومن الطريف هنا أن (ماركس) رشح إنجلترا لتكون بداية اندلاع الثورة الشيوعية ، لأنها تمثل ذروة القهر الصناعى الرأسمالى للطبقة العاملة .. لم يتخيل قط أن تبدأ الشيوعية فى بلد زراعى ـ وقتها ـ مثل روسيا ..

قلت له إننى سأبتاع جريدة ثم أعود إليه ، وبعدها نتجه لأى مكان نتناول الغداء فيه ..

وقف يداعب الحمام (لو كان هذا الحمام فى مصر لتعلم الأدب) على حين اتجهت إلى بائعة صحف عجوز ، وطلبت منها إحدى الصحف .. كنا نقف تحت بناية عتيقة لها ذلك الطابع البريطانى الكلاسيكى .. لا أعرف ماذا حدث بالضبط لكنى ـ لسبب ما ـ نظرت لأعلى فرأيت أصيص نباتات عملاقًا يهوى من حالق .. من إحدى نوافذ الطابق الرابع .. وخلف النافذة عاملة تنظيف تصرخ فى هلع ..

كان متجهًا نحو رأسى مباشرة .. لابد أن عجلة الجاذبية وطاقة الوضع التى يحاول فقدانها ستجعلان من وزنه طنًا حين يضرب رأسى ..

انتابتنى تلك الحالة من الذعر وفقدان القدرة على التحديد .. هل أتجه يمينًا أم يسارًا أم للخلف ؟ نفس المشهد العبقرى الذى رأيته مرارًا فى كارتون (توم وجيرى) .. الصخرة العملاقة تهوى فوق القط (توم) فيجرى ذات اليمين واليسار .. فى النهاية يقرر أن يستسلم ويحفر لنفسه قبرًا ، ويقف نامى اللحية يدخن سيجارًا بانتظار سقوط الجلمود فوقه .. أينما ذهبت سيكون هذا بالذات هو الموضع الخطأ ...

سمعت الصرخات .. تلك اللحظات الحاسمة تجعل الزمن أبطأ .. يمكنك أن تسمع كل شهقة وكل صرخة ..

ثم لا شىء ...

غبار كثير يتناثر ...

أنظر لأعلى لأجد أن الأصيص يتفتت فى الهواء قبل أن يصل إلىّ كأنما هو تلقى ضربة هائلة ببلطة ..

الغبار يسقط فوق معطفى ..

الناس يتصايحون ، ورجل وقور أشيب يدنو منى ليربت على كتفى :

ـ « أنت سعيد الحظ يا سيدى لو كان لى أن أقول هذا .. »

البائعة العجوز كذلك انتابتها حالة هستيرية ، فقد كانت المرشح رقم 2 للوفاة بعدى .. وجميعنا يعرف أنه كلما اقتربت من القبر أكثر صارت الحياة أثمن ..

أخيرًا جاءنى (هن ـ تشو ـ كان) مهرولاً وراح ينفض الغبار عن كتفى ورأسى ..

قال لى وهو يمسح وجهى بمنديله :

ـ « لن تكف عن عادة سوء الحظ يا (ريفالت) .. كأنك تتقاضى مالاً على ذلك »

قلت وأنا أشهق :

ـ « أى سوء حظ ؟ أنا لم أر شخصًا أسعد حظًا منى ! لقد تفتت الأصيص قبل أن يلمس رأسى »

نظر حوله بحذر وقال بالعربية كى لا يفهمه أحد :

ـ « هن ـ تشو ـ كان) فعل هذا .. لم يكن بوسعى أن أستعمل أساليب التفادى وسط هذا الزحام ! »

ـ « يا سلام ! ومنذ متى تفعل الأشياء عن بعد ؟ »

قال وهو يعيد المنديل إلى جيبه :

ـ « أستعمل طاقة (الكاى) .. إننى أستعملها طيلة حياتى .. ألم أخبرك بها من قبل ؟ »

* * *

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق ، عندئذ يبدأ فجر (النافاراى) ..

* * *

كان الليل قد جاء ونحن نمشى قرب الـ (هايد بارك) .. الظلام بدأ يجعل المكان مخيفًا ..

قلت له وأنا أرتجف من البرد ومن الخوف :

ـ « (هن ـ تشو ـ كان) .. هذا المكان مناسب كى يهاجمنا اللصوص ونتلقى علقة ساخنة ، أرى أن نبحث عن موضع أكثر أمنًا .. »

قال دون أن يبتسم :

ـ « هذا ما أتوق إليه .. أن يهاجمنا اللصوص لأشرح لك ! لقد صار من الصعب هذه الأيام أن تجد شخصًا تضربه .. »

ـ « ألن تمارس هذا البروتوكول المعتاد ؟ (السارايانا) وكل هذه التحذيرات .. إلخ ؟ »

ـ « نعم .. أريد اليوم أن أريك مثالاً لطاقة (الكاى) .. »

شرح لى (هن ـ تشو ـ كان) أن طاقة (الكاى) موجودة لدينا جميعًا .. الهندوس يطلقون عليها اسم (كوندالينى Kundalini) وهى معروفة لدى الغرب جيدًا لأن اليوجا مألوفة بالنسبة للعالم الغربى .. إنها الطاقة اللولبية الملتفة حول نفسها ، والتى لا يمكن وصفها .. فقط تحتشد فى أسفل عمودنا الفقرى .. ثم تتجه لأعلى عبر (التشاكراس chakras) .. والتشاكراس ـ إن كنت لا تعرف ـ هى المراكز السبعة للطاقة الروحية فى الجسم .. كيف يحدث هذا ؟ التأمل اليوجى أحد الأساليب المحببة لذلك ..

علمه الأخ (ميانج) فى طفولته كيف يحصل على هذه الطاقة ، وكيف يستعملها لتحريك الأشياء عن بعد .. لكن (الكاى) تعمل فى أفضل صورة لها حين يكون هناك التحام قتالى .. عندها يمكنها أن تدافع عنك كأنها قبضتك ..

سألته فى حيرة :

ـ « لم أرك تستعملها قط .. »

ـ « لأنها ليست من أساليبنا الأصيلة .. هى أقرب للصينيين واليابانيين منا .. لكنى أملكها .. كلنا يملكها .. لنقل إننى أجيد استخراجها .. أنت تجيد الإنجليزية لكنك تستعملها فقط عند اللزوم ، ثم تعود للعربية التى تريح لسانك وعقلك .. لنقل إن السارايانا هى لغتى الأم .. »

هنا سمعت الصوت الذى كنت أتوقعه :

ـ « يبدو أن السيدين لديهما بعض المال مما يمكن الاستغناء عنه ! »

يا للهجة (الكوكنى cockney) الفظة ! اللهجة العامية التى يصعب فهمها .. هم لا ينطقون الهاء أبدًا بالمناسبة بل يستبدلون بها الهمزة ..

كانوا ثلاثة .. لم يكونوا مسلحين إلا بعصى غليظة قادرة على إحداث أذى كبير .. أحدهم كان يحمل مفتاحًا إنجليزيًا عملاقًا .. كلهم كان يضع القلنسوات الصوفية ، ويلبس السترات الجلدية ، وقد حرصوا على أن يبدو منظرهم فظًا مخيفًا .. إنهم الطبقة المطحونة التى أفسدها الفقر وهم فخورون بذلك ، وحريصون على أن نراهم كذلك ..

قال (هن ـ تشو ـ كان) فى لا مبالاة وهو ينظر إلى الجهة الأخرى :

ـ « أرجو أن تذهبوا للعب فى مكان آخر يا شباب .. فلا وقت لدينا .. »

ثم جذبنى من ذراعى وابتعد عنهم ..

طبعًا صاح أحدهم وهو يلحق بنا ملوحًا بعصاه :

ـ « أنا لا أتلقى دروسًا من خنزير أسيوى ! هل عددت أسنانك يا أصفر ؟ »

لو كنت مع شخص آخر لفضلت أن نعطيه ما معنا وينتهى الأمر ثم نفر كالأرانب .. لكنى كنت أعرف أننى أمشى مع الكاهن الأخير .. لقد رأيت هذا الموقف مرارًا .. إن هؤلاء الفتية قد صاروا تاريخًا كما يقول الأمريكان ..

لكنه لم يقم بالطقوس الثلاثية التى تنذر خصمه باستعمال (السارايانا) ، والتى نسيتها تمامًا .. هذه المرة لم يفعل سوى أن كرر إنذاره مرتين .. ثم وقف متصلبًا متباعد الساقين قليلاً على حين هجم حامل المفتاح الإنجليزى علينا ..

وفى اللحظة التالية طار فى الهواء ليسقط على الأرض وهو يعتصر معدته .. هجم الثانى فبدا كأنما هو فى مباراة ملاكمة مع الرجل الخفى .. الضربة القاضية هشمت فكه من يد خفية ..

هكذا وجد الثالث أنه لم يعد ثالثًا .. لقد صار هو الوحيد .. الأخير ..

نظر لنا ولزميليه المكومين على الأرض ثم أطلق لساقيه العنان .. فقط ليتلقى ركلة خفية فى مؤخرته أسقطته أرضًا ..

وابتسمت وأنا أنظر لما صاروا إليه ..

سيظل هذا اليوم محفورًا فى ذاكرة هؤلاء الشباب باعتباره اليوم الذى قابلوا فيه الشيطان الأصفر .. لو كانوا فى مصر لتحولوا إلى مجاذيب يجولون زائغى الأعين فى الأزقة ..

بالعربية الركيكة قال (هن ـ تشو ـ كان) الذى لم يبدل أسلوب وقفته :

ـ « أنا أضرب سيئ .. »

قلت له وأنا أنظر إلى هذه المنيحة التى تمت دون لمس :

ـ « نعم .. نعم .. أفهم .. والآن تعال نجلس فى مكان هادئ ونواصل كلامنا عن هذه الطاقة الغريبة .. »

كانت لدى أسئلة كثيرة ..

وقد اعتدت معه ألا أجد إجابات .. بالنسبة له هذه أشياء تُعمل ولا تُقال .. تُحس ولاتُشرح .. تُوجد فيك أو لا تُوجد .. لا تسأل كيف تفعل الشىء .. فقط افعله ..

لكنى منيت نفسى ببعض التغيير هذه المرة على الأقل ..

* * *

3

سألته وأنا أرشف القهوة :

ـ « وهكذا وجدت المفاتيح مثنية .. هذا يدل على أنه نجح .. لكن لماذا كان فشله على الشاشة واضحًا ؟ ولماذا اعترف هو نفسه بالفشل ؟ »

ثم أضفت باسمًا :

ـ « كل (لندن) تسخر اليوم من هذا النصاب باستثنائى .. »

قال (هن ـ تشو ـ كان) وهو يبلل البسكويت بالشاى كعادته :

ـ « لا أستطيع إعطاء رأى قاطع فأنا لا أعرف المحترم (يورى جيلر) .. »

ـ « هو ليس محترمًا .. إنه إسرائيلى .. »

ـ « ليكن .. لكن ما أستطيع قوله هو أن الطاقة لاتتجزأ .. إما أن تصيب الهدف أو لا تصيب .. هل سمعت عن حالات أخرى منتقاة تأثرت بفعل طاقته ؟ »

ـ « على قدر علمى .. لا .. »

★ ★ ★

لم يكن ذلك المؤتمر المهم الذى عقد فى اليابان عام 1984 قد عقد فى ذلك الوقت .. لهذا كان العالم بالفعل يجهل كل شىء عن هذه الطاقة .

بالنسبة لنا لا تختلف هذه الطاقة عن قدرة التحريك عن بعد .. فأشهر تجربة رآها الفرنسيون لها هى قيام البروفسور (كيرو) بتحريك امرأة تنام على ظهرها مسافة سبعة أمتار على الأرض دون أن يلمسها .. على أن لها خاصية أخرى مهمة هى تثبيتك إلى الأرض ، وقد تحدى المدرب (تونج) الذى يزن 64 كيلوجرامًا بطل فرنسا فى ألعاب القوى أن يحركه من مكانه ، فلم يستطع .. كأن الرجل قد تم تثبيته بالخرسانة إلى الأرض ..

عندما نتكلم عن طاقة (الكاى) فإننا نطرق باب الإبر الصينية Acupuncture .. ونكون قد اقتربنا جدًا من سر الشبكة العجيبة التى تتحكم فى الجسم البشرى بقدراته وإحساسه بالألم .. لهذا تلعب طاقة (كاى) دورًا مهمًا فى الشفاء ، ويعتقد الطب التقليدى الصينى أن أى مرض فى العالم سببه خلل فى هارمونية شبكة (كاى) هذه ..

ولهذا ـ أيضًا ـ يعتمد الطب التقليدى الصينى على ترسانة كاملة من الأعشاب التى يطلقون عليها اسم (منشطات الكاى Qi tonics) ..

طبعًا بالنسبة لى ، لا أستطيع فهم هذ العلم .. لكنى أقبل وجوده وأحترمه ..

أحيانًا أعتقد أن كل أسيوى هو أسطورة تمشى على قدمين ، وأنه لو ترك وشأنه لطار فى السماء أو راح يحفر فى أعماق الأرض كالدودة ..

* * *

وهكذا دخل (هن ـ تشو ـ كان) غرفة الفندق معى ..

راح يتشمم الهواء .. اتجه إلى النافذة فأزاح الستار وراح يرمق (لندن) الضبابية الكئيبة .. فى (لندن) هناك لون واحد مطلق هو الرمادى ..

ثم اتجه إلى شاشة التليفزيون .. طلب منى أن أفتحه .. هو لم يألف الاختراعات الحديثة كل الألفة مع أننى أعتقد أنه يستطيع بالتأمل أن يفتحه بلا أزرار .. سألنى :

ـ « أنت كنت تجلس هنا ؟ »

وأشار إلى الأريكة فهززت رأسى موافقًا ..

ـ « والمفاتيح كانت هنا ؟ »

ـ « نعم على المنضدة .. وأكون شاكرًا لو أعدتها لسيرتها الأولى ، لأنها مهمة بالنسبة لى .. »

ابتسم ابتسامته التى هى نوع من القهقهة الصاخبة ، وقال وهو يتفحصها :

ـ « يبدو أنك لم تفهمنى يا (ريفات) .. أنا أملك طاقة (الكاى) وهى طاقة قتالية خاصة .. لكنها لا تصلح بتاتًا لهذه الألعاب .. لا أستطيع ثنى ملعقة أو فردها .. فكر فى الأمر كطلقة مدفع تخرج من ذاتك فى لحظة بعينها .. تدمر خصمًا أو تهشم أصيص نباتات ، لكنها لا تستطيع عمل شىء بها .. أنت تطلب من النمر أن يحلق بجناحيه نحو القمر .. »

نمر .. نمر .. كلما كلمتك عن شىء أقحمت نمرك هذا فى الكلام .. لابد من نمر أو تنين أو أشجار سرو فى الموضوع لتضفى عليه الطابع البوذى أو الكونفوشيوسى ..

فكرت قليلاً ثم قلت :

ـ « والتفسير ؟ »

ـ « لا أعرف .. أعتقد أن علينا أن نقابل (جيلر) هذا .. »

ـ « أقابل (جيلر) ؟ »

قلتها ورحت أفكر فى الأمر بدقة .. لن يكون هذا سهلاً لأن الرجل يعانى حالة مزمنة من الشعور بالأهمية .. سيكون سعيدًا جدًا حين يرفض طلبى لأنه مشغول ، لكنى سأحاول .. إن التفسير لهذا الذى حدث يقلقنى حقًا ..

تم اللقاء بعد أسبوع وكان مسليًا بحق ..

أحد طرفى اللقاء نصاب .. صحيح أنه يتمتع بكاريزما لاشك فيها .. لكن بوسع أى طفل أن يدرك أنه مجرد حاو .. الطرف الآخر هو الحقيقة والصدق مجسدان .. إنه الكاهن الأخير الذى لايصرح بربع مايعرفه .. الكاهن الأخير الذى رأيت منه عددًا لايوصف من الظواهر الخارقة ، لكنه لايعتبرها أكثر من (نمط تربية) نشأ عليه .. هو صار قادرًا على مايقوم به ؛ لأنه نشأ وسط كهنة (النافاراى) ولو مر أى شخص بهذه النشأة لصار الشىء ذاته .. هذا رأيه .

•

كنا جالسين فى جناح الفندق الفاخر الذى يقيم به (جيلر) ، وسكرتيرته الحسناء تقدم لنا العصير .. لم أعرف أن الوسطاء يعيشون فى هذا الترف .. قال لنا وهو يرفع كأسه فى الهواء :

ـ « معذرة .. لامشروبات روحية .. فقط عصير البرتقال الذى يوصلك إلى الصفاء .. »

قال له (هن ـ تشو ـ كان) إننا لانشرب أية مشروبات روحية .. كنت قد تركت له ناصية الحديث ؛ لأننى فعلاً غير راغب فى الكلام مع الأخ (جيلر) هذا .. دعك من أننى لا أريد أن ينزلق لسانى ..

قال الكاهن الأخير :

ـ « صديقى شاهد تجربتك فى التليفزيون و .. »

مط (جيلر) شفتيه وقال بازدراء :

ـ « هؤلاء القوم لايفهمون أن عالم القوى الخارقة لايأتى بضغطة زر .. لست حاويًا كى أقدم قواى متى أرادوا ذلك .. وأنت تعرف أننى لم أكتسب قواى بطريقة أرضية .. لقد كان لى اتصال فى مراهقتى بكائنات فضائية !! »

ـ « كائنات فـ .. فضائية ؟!! »

هنا انزلق لسانى كما كنت أخشى ، فقلت :

ـ « لكنك قبلت الظهور فى البرنامج ولم يرغمك أحد .. »

تجاهل كلامى باعتبارى تافهًا وأحمق ، وقال وهو يشير لشىء وراءه :

ـ « تأمل ما يتم بعيدًا عن الضغط الإعلامى .. »

إن لم تكن هذه الكومة المحنية على المنضدة قطعة زينـة .. إنها مجموعة من الملاعق انثنت حول نفسها وصارت عقدًا متداخلة يستحيل فكها .. لكن هذا لا يبرهن على شىء .. يمكننى أن أفعل هذا باستعمال يدى . فقط أعطنى ربع ساعة وسأكرر لك هذا المشهد بدقة ..

قال (هن ـ تشو ـ كان) :

ـ « أنت ياسيدى قلت إن التجربة فشلت .. لكن صديقى رأى سلسلة من المفاتيح الخاصـة به تنثنى أمام الشاشة حتى تلفت كلية .. »

بدا عليه الاهتمام .. ونظر لى ثم سألنى :

ـ « هل هى معك ؟ »

مددت يدى فى جيبى وأخرجتها ووضعتها أمامه .. فراح يتأملها فى انبهار ..

قال لى :

ـ « هل توافق على الشهادة أمام الصحافة بأن هذا حدث ؟ »

قلت فى غيظ :

ـ « أريد تفسيرًا أولاً .. »

ـ « التفسير هو أن التجربـة لم تفشل إلى هذا الحد .. وربما لم تكن أنت الوحيد .. »

انتهت الجلسة فطلبنا إذنه بالرحيل .. أوصلنا على الباب وصافحنا ، وقال لى :

ـ « فكر جيدًا .. إن بوسعى أن أجعل منك نجمًا إعلاميًا .. »

ـ « سأفكر فى هذا .. »

وفى سيارة الأجرة التى عدنا بهـا كـان (هن ـ تشو ـ كان) شارد الذهن غارقًا فى التفكير .. فانتظرت حتى بدا أنه يخرج من لجة الأفكار ، وسألته :

ـ « ما رأيك ؟ »

نظر لى وغمغم :

ـ « لا يبدو قادرًا على شىء .. إنه مدع .. »

ـ « والمفاتيح التى انثنت ؟ ما تفسير هذا ؟ »

قال فى بساطة :

ـ « الجواب الوحيد هو أنك تملك قدرة التحريك عن بعد ولا تعرف هذا ! »

★ ★ ★

4

للمرة الرابعة قال لى البروفسور (ثورنوايلد) :

ـ « ركز على هـذه الملعقة فى تفكيرك .. أعرف أنك لا تراها .. لكن تخيل أنها جزء منك .. تخيل أنك تراها مثنية .. »

ثم همس بشىء إلى (هن ـ تشو ـ كان) كى يغادر المختبر معى ..

كان هذا المختبر واحدًا من قاعات (جمعية البحوث الروحانية البريطانية) وهى بناية عتيقة تأسست عام 1882 ، وما زالت قائمة تعكف على دراسة الظواهر الفائقة للحس فى كل مكان من العالم .. إن لفظة ESP نفسها هى من ابتكار هذه الجمعية ..

كنت جالسًا فى ظروف اختبار (جانتسفلد Ganzfeld) التى بدأ تطبيقها مؤخرًا .. إن (جانتسفلد) لفظة ألمانية معناها (الحقل الكامل) .. ومعناها أننى أجلس فى غرفة معزولة عن الصوت .. وعلى عينى علبتان تسمحان لى بفتح العينين دون أن أرى شيئًا .. وعلى أذنى سدادتان ..

المفترض أن هذه الظروف من الحرمان الحسى الكامل ،

تشحذ موهبتى - إن وجدت - إلى أقصى حد لها .. هنا يمكن أن تكون قراءة الأفكار أسهل ، وهنا يستطيع من يملك قدرة التحريك عن بعد أن يعرف هذا ..

ركزت كثيرًا جدًا .. جدًا ..

ثم بدأت أشعر بنوع من البلل على ركبتى .. لا أعرف السبب لكن سروالى مبتل .. ربما كنت أتخيل هذا ..

هكذا واصلت التركيز .. وركزت .. وركزت ..

ثمُ شعرت بمن يزيح غطاء العينين وينزع السماعات .. وسمعت د. (ثورنوايلد) يصيح فى هلع :

- « لكن ! إن أنفك ينزف .. »

نظرت لسروالى فوجدته غارقًا بالدماء التى سالت من أنفى ..

- « هاتوا لى ضمادات ! بسرعة ! »

وأرجع رأسى للوراء . لقد تسبب التركيز فى ارتفاع ضغطى إلى أقصى حد حتى لم تعد تتحمله شرايين الرأس .. ولولا أن الدم اختار أنفى ليغادر جسدى منه ، لفضل أن يغادره عن طريق المخ .. هذا من حسن حظى وإلا لكنت ميتًا أو مشلولاً ..

كانوا مذعورين وقد رحت أشرح لهم فى صبر أن هذا يحدث لى كثيرًا جدًا .. لا أفهم كيف يعيش الناس من دون أن تنزف أنوفهم كل يوم ..

قال لى د. (ثورنوايلد) وهو موشك على التوسل :

- « أرجوك أن تكف عن التأمل ! أرجوك ! »

وقال (هن - تشو - كان) :

- « لم أر فى حياتى شخصًا لا يملك ذرة من القدرات الفائقة للحواس مثل هذا الرجل .. لقد كاد القليل من التأمل يقتله ! »

سألته وأنا أرجع رأسى للوراء :

- « إذن لم أثن المفاتيح بقدرتى الخارقة ؟ »

- « أنت غير قادر على ثنى قصاصة ورق تمسك بها بين أناملك .. وأنصحك ألا تجرب أية تجربة نفسية إذا وددت أن تموت بكامل قواك العقلية .. »

على الأقل قدمت لى هذه التجارب الجواب الذى كنت أبحث عنه وأتمناه .. لا يوجد جزء فى ذاتى لا أعرفه أو هذا ما أعتقده .. لكن يظل السؤال معلقًا : بفعل من وكيف ولماذا حدث ما حدث ؟ من الذى ثنى المفاتيح ؟

* * *

ـ « أنا (سارة) ! »

كانت تقف على باب غرفتى تطلب شيئًا آخر ..

راحت تثرثر على الباب فقلت لها فى أدب إننى أعانى ارتفاع ضغط مروعًا ، وإننى أفضل لو خرست قليلاً .. هذا لو أنها سمحت طبعًا .. فقالت فى حسرة :

ـ « حسبت أنك تستطيع مساعدتى فى فتح حقيبتى الصغيرة .. لم أحتج لشىء فيها من قبل ، واليوم أردت فتحها فلم أستطع .. »

وجدت الأمر سهلاً .. ليس بهذا التعقيد .. لهذا خرجت معها متجهًا إلى غرفتها ..

هذا غريب ! أنا أعرف أنها جارتى لكن لم يخطر ببالى قط أنها تعيش فى الغرفة المجاورة لى ..

وهكذا دخلت معها الغرفة الأنيقة ، وكانت الحقيبة على الفراش فرحت أحاول معالجة قفلها .. طبعًا هذا مستحيل لأن أى قفل لم يستجب لى فى حياتى .. هكذا طلبت منها أن تبحث عن شىء يصلح للدق ..

راحت تفتش حتى وجدت سكينًا ومنفضة تبغ ثقيلة تصلح لتكون مطرقة .. هذا يفسر احتياجها المتكرر للثقاب .. أمسكت بالسكين وثبته على القفل ورفعت المنفضة و ...

هنا لاحظت شيئًا غريبًا ..

أمام الجدار المجاور لى والذى ـ إن لم تخدعنى حاسة الاتجاه ـ يلاصق غرفتى منضدة صغيرة .. وعلى هذه المنضدة توجد ملعقة صغيرة ملتوية بالكامل حول نفسها ..

نظرت إلى الناحية الأخرى لأجد أن التليفزيون قريب من هذا المكان ..

التفت لها فى دهشة ، وهتفت :

ـ « إذن غرفتى مثل غرفتك ! »

رفعت حاجبيها غير فاهمة بمعنى : ماذا يعنيه ذلك الأحمق ؟

قلت وأنا أبدأ عملية الدق :

ـ « الملاعق عندك قد انثنت .. هل كنت تتابعين ذلك العرض ؟ »

ـ « أى عرض ؟ »

ـ « ذلك النصاب (جيلر) .. فى التليفزيون .. »

هتفت فى حيرة :

ـ « لكنه فشل .. أعلن فشله .. كل لندن تتحدث عن فشله المخجل أمام العدسات .. »

ـ « وبرغم هذا التوت الملاعق عندك .. هذا ما حدث عندى .. ويجب أن أقول إننى منذ ذلك الحين لا أجد تفسيرًا مقنعًا .. »

قالت وهى تتابع عملية الدق التى أقوم بها :

ـ « كنت أحسب ملاعقى هى الوحيدة التى تأثرت .. لم يخطر لى أن أحدًا مر بتجربة مماثلة .. »

هنا استجاب القفل أخيرًا فانفتح .. طبعًا لم أستكمل عملى لأن محتويات حقائب النساء مشينة دائمًا .. هكذا نهضت والعرق يغمر وجهى ، وقلت :

ـ « كما توقعت .. القفل قد انثنى لهذا لم تستطيعى فتحه .. هناك سر فى غرفتينا .. سر لا يعلمه إلا الله .. هذا السر هو ما جعل قوى (جيلر) النفسية الفاشلة تنجح فيما فشلت فيه أمام الجمهور ذاته .. »

ـ « جميل .. وما هو السر ؟ »

ـ « لا أعرف .. هل تعرفين لماذا ؟ لأنه سر .. لكنى سأجده .. »

وغادرت غرفتها قبل أن تقول أى شىء ...

★ ★ ★

حكيت لـ (هن ـ تشو ـ كان) هذه القصة حين زارنى بعد قليل .. كان مهتمًا فعلاً وقد قطب جبينه ، وهو يصغى لكل حرف .. ثم من دون إنذار نهض وبدأ يمارس بعض التمارين (النافاراى) التى يتخيل فيها أنه يواجه خصومًا وهميين .. لولا إلمامى بعاداته لاتهمته بقلة التهذيب ، لكنى أعرف أن هذا يمنحه المزيد من التركيز ..

وقف فى وضع متصلب وذراعاه يرسمان شيئًا يذكرك بالبجعة ، ثم أصدر صريرًا من بين أسنانه ووجه بضع لكمات سمعتها تشق الهواء .. تقلص فم معدتى وأنا أتخيل إحدى هذه الضربات تنغرس فيه ..

قال وهو فى وضع متصلب آخر :

ـ « هذه ظاهرة فريدة يا (ريفات) .. القوى النفسية تنتقل .. طاقة (كاى) تنتقل .. لكنها تذهب إلى حيث أرسلتها أنت .. هى لا تنتقى ، وليست هناك أهداف أسهل من سواها .. »

ثم زحف على الأرض ليتفادى ركلة من ذلك الخصم الوهمى ، وبينما هو على الأرض ارتفعت ساقه لتركل ذلك الخصم فصرخ وجرى .. من صرخ ؟ الخصم الوهمى طبعًا .. ظننتك تتابعنى !

رحت ألهث من مشاهدة التدريب .. هذا جهد عضلى يفوق احتمالى .. سألته لاهثًا :

ـ « والحل ؟ »

دار حول نفسه فى الهواء بحركة بهلوانية تذكرنى بحركات (النينجا) فى أفلام (هونج كونج) .. مع فارق بسيط هو أنه ليس مربوطًا بحبل من المشمع .. وقال حين ارتكز على قدميه :

ـ « فى رأيى أنك لن تجد حلاً .. حاول نسيان الموضوع فأنت لم تفقد إلا بعض المفاتيح .. »

ـ « هذا ما أفكر فيه .. »

فى هذه اللحظة سمعنا دقات على الباب ..

قلت له وأنا أتجه لأرى من الطارق :

ـ « استعد وقارك .. سوف يكون من الغريب أن يراك القادم فى هذا الوضع .. على كل حال أعتقد أنها إدارة الفندق تطالبنا بأن نلتزم الصمت وإلا فإن الشرطة سوف .... »

على الباب كان هناك ذلك الشاب يرتدى الزى الرسمى للفندق .. يطلقون عليه اسم Porter وهو بالمعنى الحرفى (الشيال) .. لكنه فى الحقيقة دينامو الفندق الذى يعنى بكل شاردة وواردة فيه ..

كان يحمل جهاز تلفزيون صغيرًا ويلهث ..

قال لى وهو يناولنى قصاصة ورق :

ـ « هذا هو التليفزيون يا سيدى .. فقط وقع لى هنا .. »

كان هذا عرضًا شائقًا لكن لا أفهم سببه .. التليفزيون هنا يعمل بكفاءة تامة .. شرحت ذلك للفتى فراجع القصاصة واحمر وجهه خجلاً .. لا تنس أنها الواحدة بعد منتصف الليل ..

قال لى وهو يتراجع إلى مدخل الباب بعد ما كان قد اقتحم الغرفة :

ـ « آسف .. إنها الغرفة المجاورة لك .. أعتذر عن الإزعاج .. لقد اختلط على الأمر .. »

سألته وقد بدأت أفكر فى شىء ما :

ـ « الغرفة المجاورة ؟ هل تعنى مس (ماكميلان) ؟ »

راجع القصاصة ثم قال :

ـ « نعم .. نعم .. جهاز التليفزيون عندها معطل منذ جاءت الفندق .. لقد حاولنا إصلاحه اليوم صباحًا وفشلنا .. لهذا جلبنا لها هذا الجهاز البديل .. »

ثم هز رأسه محييًا وجذب المقبض ليغلق الباب فى وجهى ..

استدرت إلى (هن ـ تشو ـ كان) لأرى رد فعله .. فوجدته قد اتخذ وضعًا غريبًا جديرًا بلاعبى اليوجا .. قلت له فى قلق :

ـ « هل تسمع ؟ منذ قدومها للفندق .. أى أنه لم يكن هناك جهاز تلفزيون فى غرفتها حين قدم (جيلر) عرضه .. لهذا لم تبد على علم بموضوع البرنامج على الإطلاق ، ولكنى اقترحت بغباء والتقطت هى الخط بسرعة .. »

قال وهو يأخذ شهيقًا عميقًا :

ـ « سمعت .. إنها تكذب .. بالتأكيد تكذب .. لكن لماذا تكذب ؟ »

★ ★ ★

5

راح (هن ـ تشو ـ كان) يحرك ضوء المصباح فى أرجاء الغرفة .. حتى هذه اللحظة لم نجد شيئًا ..

سألنى همسًا وهو يفتش تحت الفراش :

ـ « أين تلك الحقيبة الصغيرة التى عجزت عن فتحها ؟ »

ـ « لا أدرى .. »

كنا الآن فى موقف عبقرى يعطى حق اعتقالنا وربما إطلاق الرصاص علينا لأى رجل شرطة فى العالم .. لقد تسللنا إلى غرفتها .. أقولها بكل خجل وحرج ، لكنها الحقيقة ...

إن (هن ـ تشو ـ كان) يجيد الكثير من الأشياء .. وقد تعلم مؤخرًا طريقة الأبواب باستخدام دبوس شعر .. لا تنس أنه عمل مع المخابرات لفترة ، وقد انتظرنا حتى رأيت الفتاة تغادر حجرتها .. بعد نصف ساعة يأتى عمال التنظيف .. ويأتى موعدى مع المؤتمر .. لابد من الانتهاء سريعًا ..

كانت الغرفة مظلمة لأن الستائر السميكة كانت مسدلة ، وكنا نتوقع عقبة كهذه لذا حمل (هن ـ تشو ـ كان) معه الكشاف .. لو أزاح الستائر فما أسهل أن يلاحظها أحد .. ربما الفتاة نفسها ..

فقط كنا متأكدين من شيء واحد : ما تخفيه الفتاة لن يكون فى مكان مكشوف .. لن يكون واضحًا أمام عمال النظافة .. والأمر الآخر هو أن الملعقة لم تعد هناك ..

قال (هن ـ تشو ـ كان) وقد لاحظ ذلك :

ـ « هذا يدل على أنها تركتها عن إهمال حتى لاحظت أنت .. هكذا صححت خطأها وأخفتها .. »

ثم تشمم الهواء فى عمق .. وهمس :

ـ « الهواء يفوح برائحة لا أستطيع وصفها .. ربما القوى النفسية التى تسمونها ESP »

ـ « ماذا تعنيه ؟ »

قال همسًا وهو يواصل تفحص المكان :

ـ « الأمر واضح .. هذه الفتاة تملك قوى التحريك عن بعد .. أعتقد أنها كانت تجرى تجربتها على شيء ما ، فى ذات الوقت الذى كان فيه ذلك النصاب يجرب حظه على الشاشة .. إن قواها النفسية هى التى تسربت إلى غرفتك وجعلت مفاتيحك تنثنى .. لاحظ أن المفاتيح كانت على المنضدة الملاصقة للجدار .. »

نظرت لساعتى ثم أعلنت أن الوقت قد حان لننصرف .. من الواضح أننا لن نجد شيئًا لو كان هناك شيء منذ البداية ..

* * *

انتهيت من أعمال المؤتمر فعدت إلى غرفتى فى المساء .. كنت قد اتفقت مع (هن ـ تشو ـ كان) على أن يلحق بى .. لقد صارت أيامى معدودة فى هذا البلد ، وأريد قضاء أكبر وقت ممكن مع هذا الفتى .. ربما لن نلتقى إلا بعد أعوام وربما لن نلتقى أبدًا ..

فتحت الباب ودخلت فى الظلام ..

هنا أثار دهشتى أن هناك من يرقد فى الفراش .. أضأت النور الكهربى فوجدت أنها تلك الفتاة (سارة) .. ماذا أتى بها هنا ؟ لا أظن أنها أخطأت الغرفة لأن غرفتى ذات طابع مميز يسوده الإهمال ..

كانت بكامل ثيابها حتى الحذاء ، وقد نامت على ظهرها ووضعت الوسادة فوق وجهها .. يوحى مظهرها العام بأنها كانت تنتظرنى حتى غلبها السأم فنامت .. لكن لماذا تنتظرنى ؟

هل هناك ما أوحى لها بأننى تسللت لحجرتها صباحًا ؟

شعرت بقلق لأننى لم أعد أرتاح كثيرًا لهذه الفتاة .. رقيقة لطيفة لكن هذا صار يسبب لى رعبًا بالغًا .. (هتشكوك) تحدث عن الأشخاص الودودين أكثر من اللازم ، ويبدو أنه كان على حق .. دعك من حقيقة أنها كذابة وأنها تملك قوى نفسية هائلة ...

هكذا دنوت منها أكثر .. مددت يدى وأبعدت الوسادة التى تكتم أنفاسها ..

هنا فقط أدركت أننى أخطأت ..

لم يكن هذا وجهًا بشريًا .. إنه وجه شخص هلك محترقًا لكنه ـ وهذا أسوأ ما فى الأمر ـ ما زال حيًا ...

كانت عيناها مفتوحتين تنظران لى .. ثم نهضت ..

لم تنهض كما يفعل النائمون ، لكنها نهضت بطريقة ميكانيكية سريعة كما ينهض مصاصو الدماء من توابيتهم فى السينما ..

قالت وهى تمد يدها نحوى :

ـ « آسفة لأننى أزعجتك .. إن منظرى ليس مريحًا .. لكنى أعرف أنك تقدر هذه الأمور .. »

تراجعت بظهرى عاجزًا عن الكلام .. ذهول تام يغمرنى حتى تحولت إلى طفل أبكم ..

هذه الفتاة الرقيقة ليست كائنًا بشريًا . لم يكن كذلك فى أية لحظة ...

ـ « لقد انتظرتك كثيرًا ، وفى النهاية قررت أن أخلد للنوم إلى أن تأتى وننتهى .. »

ـ « ننتهى من أى شىء ؟ »

ـ « من قصتك ! »

كانت تتقدم منى ببطء ، وأدركت أننى لن أجد أبدًا الوقت الكافى لفتح الباب .. إنه خلفى ولو استدرت لوثبت علىّ .. لكنى شعرت بحركة من خلفى ..

فى اللحظة التالية انفتح الباب فقذفنى للأمام ..

وسمعت صوت (هن ـ تشو ـ كان) يهتف :

ـ « ابتعد يا (ريفات) ! »

رأيته يدخل الحجرة فيتخذ وضعًا قتاليًا ممتازًا .. كان يرتجف فى عصبية لكنه متماسك ، وشعرت براحة لأننى لم أعد وحدى .. لا أعرف ما يقدر على عمله لكنه أفضل مما سأفعله أنا ..

قالت له وهى تتقدم نحوه فاتحة ذراعيها :

ـ « هلم .. أنت تعرف أنك لن تتغلب علىّ .. قوانين المادة لاتنطبق علىّ .. »

هنا رأيته يتصلب .. يتخذ ذلك الوضع الذى رأيته من قبل .. تركيز عال جدًا على وجهه .. كل الأوردة تنفر فى عنقه وعلى جبهته .. العرق ينبت هنالك ..

وفى اللحظة التالية طارت الفتاة إلى الوراء لتسقط فوق الفراش ثانية ..

لقد وجه لها ضربة بطاقة (الكاى) .. خمن أن القتال العادى لن يجدى .. لابد من قبضة غير مرئية تطيح بهذا الشىء بعيدًا ..

نهضت من جديد وقد صار وجهها شيطانيًا أكثر مما كان ، وفى هذه المرة اشتعلت النار فى كفيها .. كانت تلوح بهما كأنها فخور بمنظرهما الغريب ، وعادت تقول :

ـ « لاتحاول يا فتى .. هذه الألعاب الصبيانية لاتجدى معى .. »

ضربة أخرى غير مرئية أطاحت بها إلى الوراء ..

هنا وجدت أنه لا لأحد ينظر لى .. غادرت الغرفة مسرعًا ..

الدرج والبهو .. موظف الاستقبال الذى يشاهد التليفزيون غير عابئ بشىء ..

ارتميت على (الكاونتر) وأنا ألهث .. لحسن الحظ أن علبة الأقراص فى جيبى .. تناولت قرصًا تحت لسانى .. وقلت فى جزع :

ـ « هلموا لمساعدته ! هلموا ! »

نظر لى الفتى فى دهشة .. واضح من منظرى أننى لم آت كى أشكو انقطاع المياه فى الحمام .. نهض وقرب أذنه منى ليسمع أفضل ، فقلت :

ـ « هناك .. هناك مسخ فى حجرتى .. إنه يقاتله .. »

وتحاملت كى لا أسقط أرضًا ..

ظهر ساق مسن أشيب الشعر والحاجبين وراح يصغى لكلماتى .. أضفت وأنا آخذ نفسًا عميقًا :

ـ « إن كفيها مشتعلتان ! »

نظر الساقى إلى الفتى الشاب .. وبدا عليهما أنهما فهما .. قال الكهل فى هلع :

– « يا للسماء ! إن لم تكن هذه (سارة) ! »

– « لم أربط بين الاسمين .. »

– « هل انثنت المعادن فى الغرفتين ؟ »

قلت أنا وقد بدأت أستعيد أنفاسى :

– « نعم .. نعم .. فى غرفتى وغرفتها .. ماذا يجرى هنا ؟ »

لم يرد الرجلان لأنهما حملا أسطوانة إطفاء الحريق وهرعا إلى الطابق العلوى حيث حجرتى .. ولا أعرف متى ولا كيف لحق بهما آخرون حتى صرنا مظاهرة صغيرة تشق طريقها إلى هناك ..

قبل أن نفتح الباب سمعنا صرخة شنيعة .. صرخة لا تنتمى لهذا العالم ..

ثم دوى صوت الماء ينهمر ..

قال الكهل :

– « لقد أدت لتشغيل جهاز الإطفاء .. »

– « هذا لحسن حظنا .. »

ومد أحدهم يده يفتح بابى أكثر .. كنت متأهبًا لأسوأ النتائج .. لكنى وجدت الكاهن الأخير يقف حيث تركته .. كان فى أسوأ حال والنار تشتعل فى كتفيه وأجزاء عدة من سترته .. لكن الماء المنهمر من السقف كان قد بدأ يغمره .. أما على الفراش فقد كانت كتلة نيران لها مظهر بشرى تحاول أن تنهض ..

لكن اللكمات ما زالت تنهمر عليها من أعماق أعماقه .. من أسفل عموده الفقرى تخرج (الكاى) أو (الكوندالينى) لتوجه لها لكمات خفية لا يراها أحد ..

كان كل شىء معدنى فى غرفتى قد تقوس .. لا بفعل الحرارة ولكن بفعل قوى خفية لا نراها ..

ودوى الانفجار حين بلغت النار جهاز التليفزيون ..

الزجاج المتناثر يضرب (هن – تشو – كان) فى وجهه لكنه يتماسك .. الكيان المشتعل فوق الفراش ينهض ويلوح مصدرًا صوتًا كصراخ العنقاء .. ثم يتلقى ضربة أخرى غير مرئية فيهوى ...

الماء ينهمر والنيران تخوض معركتها الأخيرة ...

هنا اندفع الكهل تحت المياه المتدفقة وفتح جهاز الإطفاء فاندفع السائل الرغوى يغمر ذلك الجسم الذى كان على الفراش ..

لا بد أن المأساة دامت بضع دقائق .. إلا أنها بدت لنا عدة قرون ..

وفى النهاية تناثر الكيان على الفراش وقد تحول إلى خليط من الماء والرغوة والرماد .. بينما تهاوى (هن ـ تشو ـ كان) على الأرض وقد احترقت دوائره الداخلية .. لقد ذابت منصهراته تمامًا من فرط هذا الجهد ..

★ ★ ★

6

ـ « يا للسماء ! أنت شجاع حقًا يا سيدى .. »

قالها الساقى الكهل وهو يجفف وجه (هن ـ تشو ـ كان) .. وقد قدم له أحدهم كأسًا صغيرًا تشممه وهو فى حالته تلك ، فبدا عليه النفور وأبعده عن فمه :

ـ « لا .. كحوليات .. لا .. »

قلت للساقى وأنا أتأمل ما صارت إليه الردهة .. سوف يحتاجون إلى شهر كى يعود للمكان رونقه القديم :

ـ « ما معنى هذا ؟ يبدو لى أنكم تعرفون القصة تمامًا .. »

قال فى إنهاك :

ـ « ليس الجميع .. إنها تحدث كل عشرين عامًا لهذا لا يعرف الشباب الكثير عنها .. أنا نفسى أرى هذا للمرة الثانية فى حياتى .. وفى كل مرة ننسى الأمر حتى نفاجأ به من جديد .. إن منظرها يتغير .. أحيانًا هى مسنة وأحيانًا هى شابة .. المهم أن اسمها دائمًا هو (سارة) .. »

قلت فى خبث :

ـ « طبعًا (سارة) هذه احترقت فى غرفتها بالفندق منذ مائة عام .. ولعلها انتحرت .. »

نظر لى فى دهشة وغمغم :

ـ « كيف عرفت .. »

ـ « لأننى عبقرى .. أكمل .. »

كان الاستمتاع باديًا عليه . كل الكهول يجدون لذة لاتخفى فى سرد هذه القصص التى لايعرفها الشبان ، وكلما بدا الانبهار على الوجوه كلما ازداد نشوة .. أردف :

ـ « منذ ذلك الحين تظهر (سارة) كل عشرين عامًا لتتخذ غرفة فى الفندق .. غرفة مجاورة لتلك التى ماتت فيها ، ثم تظهر لنزيل الغرفة .. وتتحول إلى شعلة حية .. تحرقه وتحرق الغرفة ثم تتوارى .. إنها ليلة معينة هى أسود ليلة تمر على الفندق ولحسن الحظ أنها لاتحدث كثيرًا ..

ـ « على أن (سارة) تتصرف كأى شبح يجيد عمله .. إنها تعطى إنذارًا قبل هذا بعدة أيام .. أولاً تنثنى بعض الأجسام المعدنية فى غرفتها والغرف المجاورة .. ثانيًا هى لاتكف عن طلب ماتشعل به النار من جيرانها .. أعواد ثقاب .. شموع .. قداحات .. طبعًا لا يلاحظ أحد شيئًا ولا يربط بين الحادثين .. وسرعان ما تحدث المأساة .. »

سألته فى حيرة :

ـ « ولم تلاحظوا تلك الأجسام التى انثنت ؟ »

قال ببراءة :

ـ « طبعًا لم نلحظ شيئًا كهذا .. ولو لاحظناه لما ربط أحد بين الأمرين .. لا أحد يذكر هذه القصة أو يعاملها بجدية مالم نضع مفكرة تذكر العاملين بعد عشرين عامًا بموعدها .. »

نظرت إلى الكاهن الأخير المنهك وسألت :

ـ « هل تعتقد أنها رحلت ؟ »

قال الساقى الكهل :

ـ « هى لاترحل .. سوف تنهض كالعنقاء من الرماد .. »

بينما قال (هن ـ تشو ـ كان) من بين أسنانه :

ـ « أعتقد أنها تلاشت .. لقد تلقت كل طاقة (الكاى) المتوارية فى داخلى .. »

ـ « ولماذا حدث ثنى المفاتيح فى ذات اللحظة التى كان برنامج (جيلر) يقدم فيه على الشاشة ؟ »

قال (هن ـ تشو ـ كان) باسمًا :

ـ « أنت فى غرفتك من وقت مبكر .. هل أنت متأكد من أنها انثنت لحظة البرنـامج ؟ ربمـا حدث هذا قبلـه أو بعده لكنك رأيتها وربطت بين الحادثين .. أعتقد أن مفـاتيحك كانت مثنية منذ بدأت الأمسية .. »

لا أنكر كم مرة أنقذ (هن ـ تشو ـ كان) حياتى فيها لكنه يفعل ذلك بلا توقف .. أعتقد أننى من المحظوظين القلائل الذين يحميهم أحد كهنة النافاراى ..

على كل حال خرجت من هذه القصة بنتيجتين : الأولى هى أن طاقة (الكاى) قوة قاهرة لا بد أن أفهمها أكثر .. ثانيًـا : (يورى جيلر) نصاب مهما بدا لنا العكس !

* * *

خاتمة

كانت هذه هى القصة الثانية .. تحريك عن بعد اتضح أنه ليس كذلك ..

لكننا لم ننته بعد من المحركين وقصصهم ..

فى الكتيب القادم لنا المزيد من اللقاءات معهم . لقد بحثت عن عنوان يناسب ذلك الكتيب فلم أجد إلا عنوانًا معقدًا سخيفًا ثقيلاً على اللسان .. غير معتاد .. متحذلقًا نوعًا ما .. لا يخلو من الادعاء .. سمجًا .. مملاً .. كئيبًا .. غير موح .. ركيكًا ..

باختصار .. هو أفضل عنوان يناسب الكتيب القادم ..

لنفترق الآن ، وليكن لنا لقاء قريب مع (أسطورتهم) ...

رفعت إسماعيل

القاهرة

* * *

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة المحركين

نعم عرفت الكثير عن التحريك
عن بعد .. رأيت تجارب له أمام عينى،
وقابلت أشخاصاً مارسوه وما زالوا .. وقد تعلمت أن
هؤلاء الأشخاص يفضلون إخفاء موهبة هائلة كهذه مقابل
أن يندمجوا فى عالم البشر، ولا يتم اعتبارهم فلتات
Freaks .. أما الذين يتفاخرون فى كل صوب بموهبتهم،
ويعرضونها على المسارح، وفى الملاهى الليلية، فهم على
الأرجح مجرد حواة، عرفت كذلك أن البعض لديهم
هذه الموهبة لكنهم لا يعرفون ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم :
أسطورتهم

الثمن فى مصر
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

